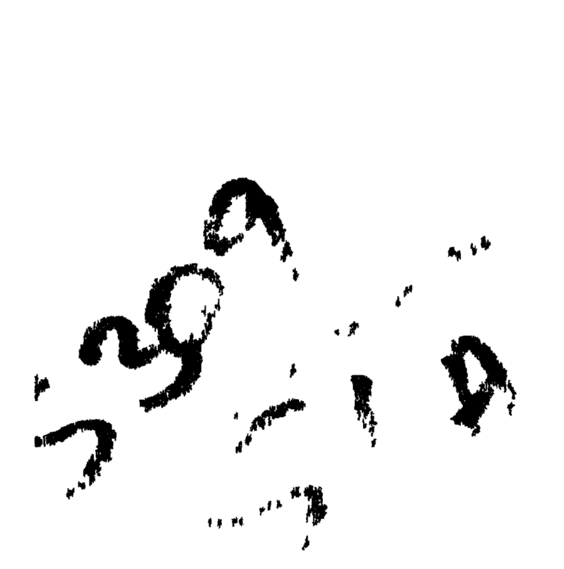


جوهر الصقلي

قائد المعز لدين الله الفاطمي

تأليف

علي إبراهيم حسن

دبلوم المعلمين العليا

والحائز لدرجتي ليسانسيه فى الآداب

وماجستير فى الآداب (M.A) من الجامعة المصرية

والمدرس بالمدارس الأميرية

وهى الرسالة التى تقدم بها إلى الجامعة المصرية فى مايو سنة ١٩٣٣

ونال بها وبغيرها من الامتحانات درجة أستاذ فى التاريخ

يطلب من المكتبة التجارية الكبرى بأول شارع محمد علي بمصر

لصاحبها : مصطفى محمد

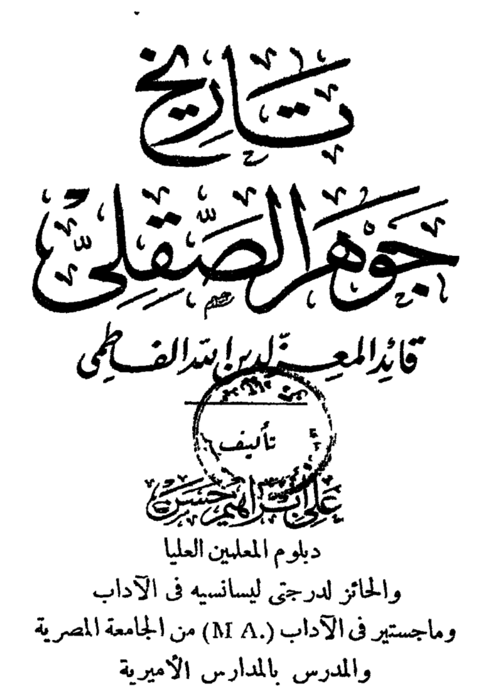
الطبعة الأولى

١٣٥١ هـ - ١٩٣٣ م

مطبعة حجازي

بجوار قسم الخليفة بالقاهرة

تليفون ٥٥٤٨



تاريخ جوهر الصقلى

قائد المعز لدين الله الفاطمى

تأليف

على إبراهيم حسن

دبلوم المعلمين العليا

والحائز لدرجتى ليسانسيه فى الآداب

وماجستير فى الآداب (M A.) من الجامعة المصرية

والمدرس بالمدارس الأميرية

وهى الرسالة التى تقدم بها إلى الجامعة المصرية فى مايو سنة ١٩٣٣
ونال بها وبغيرها من الامتحانات درجه أستاذ فى التاريخ

يطلب من المكتبة التجارية الكبرى بأول شارع محمد على بمصر

لصاحبها: مصطفى محمد

الطبعة الأولى

١٣٥١ هـ — ١٩٣٣

مطبعة حجازى

بجوار قسم الجمالية بالقاهرة

تليفون ٥٥٤٨٠

تصدير الكتاب

بقلم الدكتور حسن ابراهيم حسن

أستاذ التاريخ بكلية الآداب

لقد وضعت كلية الآداب نظاماً دقيقاً للدراسة لدرجتى الماجستير والدكتوراه. ولاريب فىأن هذا النظام لا يقل دقه عنه فى جامعات أوربا، اذ لا يسمح للطالب بدخول امتحان الماجستير إلا اذا كان حاصلا على درجة الليسانس، حيث يدرس كل فروع التاريخ وكذا اللغات الانجليزية والفرنسية واللاتينية والألمانية، كما يجب أن يكون قد مضى على نجاحه فى امتحان درجة الليسانس سنتان على الأقل. فاذا أقر الرسالة الأستاذ المشرف على البحث الذى يعده الطالب لامتحان هذه الدرجة شكلت لجنه من ثلاثة من أساتذة الكلية ومن بينهم أحد الأساتذة الأجانب عادة. فاذا رأت اللجنة صلاحية هذه الرسالة للمناقشة، وضعت أسئلة الامتحان التحريرى وحددت موعداً لمناقشة الرسالة.

وإن الشخص الذى يشتغل بهذا البحث لابد أن يصل الى مستوى لائق فى اللغات الأجنبية، كما تزداد مادته العلمية من قراءة الكثير من المصادر العربية والأوربية. فضلا عما لذلك من الأثر فى مستواه الفكرى، ولاسيما فيما يتعلق بطرق البحث. وقد استفاد الأستاذ على ابراهيم حسن كثيراً من هذا النظام، وأرجو أن يستفيد أكثر من ذلك فى مؤلفه الذى سيتقدم به لامتحان الدكتوراه.

لقد عُنى المؤلف فى هذه الرسالة بدراسة ناحية من أهم نواحى تاريخ مصر

الاسلاميةالتى لاتزال غامضة مبهمة ، والتى يقضى علينا الوفاء لبلادنا بأن نعنى باستقصائها لنقف على ماكانت عليه بلادنا من حضارة وقوة ومجد ، ولا غرو فان آثار مصر منذ الفتح الاسلامى قد درست أو كادت ، كما لاتزال المعلومات التاريخية التى دونت عنه مبعثرة مشتتة فى بطون الكتب ، ولاسيما فى مؤلفات الكندى وابن زولاق وابن منجب الصيرفى وابن ميسر وابن دقماق والمقريزى والقلقشندى وأبى المحاسن وابن الجيعان والسخاوى ، وغيرهم ممن عنوا بتاريخ مصر الاسلامية . هـذه المصادر لاتزال فى حاجة ماسة الى القراءة والدرس للوقوف على ماكانت عليه مصر فى العصر الاسلامى .

وإن عصر جوهر الصقلى ـ ذلك العصر الذى فتح فيه الفاطميون مصر وأسسوا فيها الحضارة الفاطمية ـ لمن أهم عصور التاريخ المصرى . لذلك كان جوهر لايقل أهمية عن عمرو بن العاص وأحمد بن طولون ومحمد بن طغج الاخشيد وصلاح الدين الأيوبى والظاهر بيبرس ومحمد على باشا ، وغيرهم من مشهورى أمراء مصر وسلاطينها .

وكان لبحث هذه المصادر التاريخية على هـذا النحو أثر كبير فى حياة المؤلف من حيث تنمية ملكتى التحليل والنقد عنده ، وهو أهم ماترمى اليه الدراسة الجامعية . ولولا صلة القرابة التى تربطنى بالمؤلف ، لوفيته حقه من الثناء ، لذلك المجهود الذى بذله فى تأليف هذا الكتاب ونشره حرصاً على إفادة بنى وطنه خاصة والمشتغلين بالتاريخ الاسلامى عامة .

وقد وفق الأستاذ علىّ الى حد كبير فى هذا البحث الطريف ولاسيما فى معالجته لكثير من النواحى الدقيقة ، التى لم يسبقه اليها أحد فى تاريخ جوهر ، وبخاصة فيما يتعلق بموطنه الأصلى ، ونشأته ، وأثره فى توطيد دعائم الدولة الفاطمية فى بلاد المغرب ، كذلك فتح مصر والشام والحجاز مما مهد الطريق لمن يريد استقصاء تاريخ مصر فى هذا العصر .

وتمتاز الرسالة فوق غزارة مادتها ، بسهولة العبارة ومناقشة الحوادث ،

وهى مما لايستغنى عنه طلبة المدارس العالية وطلبة الجامعتين المصرية والأزهرية ، وغيرهم ممن يعنون بتاريخ مصر الاسلامية . ولاغرو فهى تمدنا بصفحة مجيدة من صفحات تاريخ بلادنا ؟

٥ أكتوبر سنة ١٩٣٣ حسن ابراهيم حسن

مقدمة الكتاب

بسم الله الرحمن الرحيم

قد اخترت حياة جوهر الصقلى ، قائد المعز لدين الله الفاطمى ، موضوعا لهذه الرسالة ، لما كان لذلك القائد العظيم والفاتح الكبير من الأثر فى تاريخ العالم الإسلامى عامة وتاريخ مصر الإسلامية خاصة ، لاسيما وأنه هو الذى فتح مصر وأقام سلطان الفاطميين فى الشرق .

لم يكن هناك تاريخ خاص بجوهر ، اللهم الا هذه الشذرات المبعثرة فى بطون الكتب العربية والأفرنجية ، تلك الشذرات التى لم يُعن أحد بجمعها فى كتاب خاص ولم يتناولها أحد بالبحث والنقد . لذلك أجهدت نفسى فى استقصاء كل ما يتعلق بتاريخ هذا القائد وتمحيص أخباره وآثاره ، مستعينا فى ذلك بالمادة التاريخية التى خلفها لنا المؤرخون ، والتى استطعت بها أن أوضح الكثير من المسائل الغامضة فى هذه الناحية من نواحى تاريخ مصر الاسلامية .

وقد عنيت بدرس كل ما كتب عن حياة ذلك القائد ، والدور السياسى الذى لعبه فى تاريخ مصر . من ذلك تأسيس مدينة القاهرة التى لاتزال حاضرة الديار المصرية إلى اليوم ، وبناء الجامع الأزهر ، ونشر المذهب الفاطمى ، وفتح مصر الشام وفلسطين ، وتوطيد سلطان الفاطمين فيها ، وصد غارات القرامطة عن مصر ، وهزيمة أفتكين ومن حالفه من القرامطة . كل هذه مسائل لم يتناولها أحد بالبحث والتمحيص على النحو الذى فصلناه .

وأرجو أن أكون قد وفقت فى هذا البحث بعض التوفيق ، والله أسأل أن يهدينا سواء السبيل .

وإننى أتقدم بالشكر الجزيل إلى حضرة أخى الأستاذ الدكتور حسن ابراهيم حسن لما أمدنى به من الارشادات القيمة فى هذا البحث، وإلى حضرة الأستاذ الشيخ محمد زكى إبراهيم خريج قسم التخصص والمترجم بمصلحة المساحة لتفضله بمراجعة الكتاب .

٥ اكتوبر سنة ١٩٣٣ — على ابراهيم حسن

صفحة

فهرس الرسالة

الباب الأول

جوهر منذ ولادته الى أن ولى فتح مصر

البَابُ الثانى

استيلاء جوهر على مصر

الباب الثالث

سياسة جوهر فى مصر

الباب الرابع

منشئات جوهر فى مصر

صفحة

الباب الخامس

حياة جوهر فى مصر بعد قدوم المعز اليها

صفحة

الصور والخرائط

مقابل صفحة

الباب الأول

جوهر منذ ولادته الى أن ولى فتح مصر

الفصل الاول

جوهر قبل اتصاله بالمعز

يحمل بنا قبل المضى فى الكلام عن حياة جوهر ، الذى نضع له هـذه الرسالة لاستقصاء أخباره وتتبع آثاره وفتوحه وسياسته وأخلاقه ، أن نأتى بكلمة يسيرة عن موطنه الأصلى « صِقِلِّيَة » . فإن للبيئة التى ينشأ فيها الشخص ويترعرع تأثيراً كبيراً فى أعماله . ودراستها يسهل الحكم على حياة الرجل مما يحيط به من المؤثرات .

وُلد جوهر بجزيرة صقلية ، إحدى جزر الدولة الرومانية ؛ فهو باعتبار مولده رومى الأصل ؛ (١) وكان العرب يطلقون على أهالى الدولة الرومانية (الشرقية والغربية) إسم الروم .

وقد ظلت صقلية ، (٢) موطن جوهر الأصلى ، تحت حكم الرومان حتى

---

(١) ذكر المقريزى (الخطط حـ ١ ص ٣٧٧) أن جوهراً «مملوك رومى رباه المعز لدين الله» . كذلك أطلق عليه ستانلى لين پول ([illegible] p. 117) اسم «العبد الرومى»

(٢) صقلية : بثلاث كسرات وتشديد اللام ، والياء أيضاً مشددة . والبعض يقول بالسين . وأكثر أهل صقلية يفتحون الصاد واللام . وهى من جزائر البحر الأبيض المتوسط ، بينها وبين افريقية مائة وأربعون ميلاً . وهى جزيرة حصينة

فتحها الأغالبة (١) سنة ٢١٢ هـ (سنة ٨٢٧ م) على يد أسد بن الفرات قاضى القيروان ، وذلك فى عهد المأمون . ويحدثنا ياقوت (٢) أن أسداً فتح هذه الجزيرة على رأس تسعمائة فارس وعشرة آلاف راجل . وكانت ولاية القضاة إمرة الجند مألوفة عندالمسلمين ؛ فطالما قادوا الجيوش وفتحوا كثيراً من البلاد ، وخرجوا فى الغزوات مابين شاتية وصائفة إلى بلاد الدولة الرومانية الشرقية ، التى كانت فى عداء مستمر مع المسلمين بحكم الجوار . فقد ولى القاضى يحي بن أكثم قيادة الجند فى عهد المأمون لقتال البيرنطيين .

وقد أسلم أكثر سكان جزيرة صقلية على أثر هذا الفتح ، وبنوا بها كثيراً من المساجد ودور العلم . وكان للرحالة من المسلمين معرفة تامة بجزيرة صقلية مهد جوهر . فقد ذكر لنا ياقوت أن أبا الحسين بن يحي بن الفقيه وصفها فى كتابه « تاريخ صقلية » وصفا دقيقا مسهبا ، فتكلم عن جبالها وبراكينها ومضايقها ومعادنها وثمارها وفواكهها ، ومابها من الأبنية والحصون والآثار . كذلك وصفها ابن حوقل الذى رآها سنة ٣٦٢ هـ ، وهى السنة التى وصل فيها المعز لدين الله الفاطمى إلى القاهرة واتخذها حاضرة

كثيرة البلدان والقرى ، وبها نحو ثلاث وعشرين مدينة وثلاثة عشر حصناً . وبها جبل النار الذى يزعم الروم أن كثيراً من الحكماء الأولين كانوا يدحلون الى الجزيرة لمشاهدة عجائبه واجتماع النار والثلج فيه ، وقيل إنه كان فى هذا الجبل معدن الذهب ، وقد سماه الروم جبل الذهب . وحاضرة هذه الجزيرة مدينة بلرم ، ومن أكبر مدنها الخالصة . (ياقوت معجم البلدان جـ ٥ ص ٣٧٣ — ٣٧٦) .

(١) أسس هده الدولة ابراهيم بن الأغلب الذى أقطعه هارون الرشيد شمال افريقية فى سنة ١٨٤ هـ (سنة ٨٠٠ م) ، فوليها هو وأولاده من بعده الى سنة ٢٩٦ هـ (سنة ٩٠٩ م) .

Stanley Lane-Poole : The Mohammadan Dynasties p. 36

(٢) معجم البلدان جـ ٥ ص ٣٧٤

لدولته ، وكتب عنها كتابا سماه « محاسن أهل صقلية » وذكر من بين مدنها الكبيرة بلرم والخالصة ، كما قال ان عدد ما شيّده المسلمون فيها من المساجد يزيد على الثلثمائة . ومن ذلك نقف على مدى انتشار الاسلام فى هذه البلاد وتمكنه من نفوس أهليها . ووصف هذه الجزيرة أيضا الشريف الإدريسى المتوفى سنة ٦٤٩ هـ (سنة ١٢٥١ م) ، والذى شاهد كثيرا من ممالك العالم المختلفة .(١) وقد أهدى لروجر الثانى ملك صقلية كرة أرضية من الفضة رسمت عليها البحار والقارات .

وقد صادفت اللغة العربية فى تلك البلاد جواً صالحاً ، كما وجد الدين الأسلامى مرعى خصيباً بين أهل صقلية . فقد انتشرت هذه اللغة فى تلك الجزيرة وأصبحت لغة التخاطب فيها ، واللغة الرسمية للبلاد . وترجمت فى هذه الجزيرة أهم مؤلفات أفلاطون وأرسطو إلى اللغة العربية ، كما انتشر الشعر العربى بين أهلها ، وبخاصة المعلقات السبع (٢) وغيرها من القصائد العربية . وكان لما أخذه رودجر النرماندى عن العرب من المُثُل العليا للفروسية أثر كبير فى ارتفاع شأن أسرته . أضف إلى ذلك ما أخــــذه عنهم من النظام الادارى واستعانته بالموظفين المسلمين فى إدارة شئون دولته (٣)

---

(١) كتاب نزهة المشتاق فى ذكر الأمصار والأقطار والبلدان (رومة سنة ١٥٩٢)

ذكر المقريزى (الخطط جـ ١ ص ٤١٥) أن جميع البلاد التى ذكرها الادريسى كانت مكتوبة على ستور حريرية بالقصر الفاطمى فى القاهرة .

(٢) كان عند العرب فى الجاهلية أسواق للأدب يتناشد فيها الشعراء القصائد العصماء أمام المحكمين من شعراء العرب. فكانت القصائد التى يحكم لها بالسبق تكتب بماء الذهب وتعلق على جدران الكعبة تكريماً لأصحابها واشادة بذكرهم بين قبائل العرب المختلفة . وقد بلغ مجموع هذه القصائد حتى ظهور الاسلام سبعاً .

(٣) Encyclopaedia of Islam, Sicily, S. V.

ويعتبر العصر الذى سادت فيه الثقافة العربية فى هذه الجزيرة هو العصر الذهبي لها ، ذلك العصر الذى بذت فيه صقلية جميع ممالك أوربا من حيث الحضارة والمدنية . وكان من أثر انتشار اللغة العربية أن أصبحت لغة النقوش التاريخية فى هذه البلاد ، حتى كان الملوك من النرمانديين يجيدون التكلم بها . وقد أفسحت اللغات الأغريقية والعربية والفرنسية الطريق إلى اللهجة الايطالية . ويرجع السبب فى ذلك إلى أن الفتح النرماندى قد عبر الطريق للمهاجرين من إيطاليا ، وبخاصة للنرمانديين (١) .

وكان من الطبيعى أن تؤثر هذه البيئة الاسلامية فى نشأة جوهر ، فيشب على الإسلام متمسكا بأهدابه ، مثقفاً تثقيفاً عالياً بفضل انتشار اللغتين العربية واللاتينية وغيرهما من اللعات السائدة فى هذه البلاد ، ويأخذ بنصيب كبير من الحضارتين العربية والرومانية . وكان لتلك الثقافة أكبر الأثر فيما عرف به جوهر من حسن السياسة والمهارة الحربية . ولم تلبث هذه الحضارة أن انتشرت بين الفاطميين ؛ فقد كان الخليفة المعز مثقفاً يجيد عدة لغات : منها الأغريقية والصقلية ، كما كان ذا ولع بالعلوم ودراية بالآداب ، معروفاً برجاحة العقل وحسن التدبير (٢) . ومن ثم اختار رجالات دولته من بين المغاربة وأهل صقلية ممن اشتهروا بالحزم والكفاية والثقافة العالية .

***

لم يحفظ لنا التاريخ لسوء الحظ شيئاً ذا غناء عن بيت جوهر وعن أبيه وأمه وأخوته وغيرهم من ذوى قرباه ، ولا عن كيفية اتصاله بالمعز ، وإنما

---

(١) Ecnyclopaedia Britannica, Encyclopaedia of Islam Sicily, S. V.

(٢) Stanley Lane-Poole : The Story of Coiro, p. 116.

هى أخبار مبعثرة لاتمثل لنا حياة هذه الأسرة التى نشأ بها جوهر تمثيلا صحيحاً واضحاً .

وليس لدينا من المصادر ما يسمح لنا بالوقوف على السنة التى ولد فيها جوهر بالضبط ، اللهم إلا ماذكره ابن زولاق(١) من أنه سأل الشريف أبا جعفر مسلم عند ما عاد إلى الفسطاط ، بعد مقابلته له ومفاوضته إياه بشأن الصلح سنة ٣٥٨ هـ ، عن سن جوهر فقال : « نيف وخمسون سنة » . وعلى ذلك يكون جوهر قد ولد بين سنتى ٣٠٥ هـ ، ٣٠٧ هـ . غير أن هذا يتعارض مع ما ذكره المقريزى (٢) من أن جوهرا قد توفى سنة ٣٨١ هـ بعد أن نيف على الثمانين . ولو أخذنا بهذه الرواية لكانت ولادة جوهر بين سنتى ٢٩٨ هـ و ٣٠٠ هـ . ونحن نميل إلى ترجيح الرواية الثانية لأنها قد وردت على لسان جوهر نفسه . فقد ذكر المقريزى أن جوهرا قال لابن عمّار (٣) فى سنة ٣٨١ هـ ، وهى السنة التى مات فيها جوهر ، لقد «نيفت على الثمانين» . والنيف ـ على ما ذكره صاحب المصباح ـ هو من واحد إلى ثلاثة . بينما لم تعد الرواية الثانية أن تكون تقديرا تقريبيا لسن جوهر من أبى جعفر مسلم .

ولم يذكر لنا المؤرخون شيئاً عما إذا كان جوهر قد ولد مسلما أو أسلم بعد ولادته . والذى يغلب على الظن أنه وُلد مسلما . فقد دخل الاسلام جزيرة صقلية سنة ٢١٢هـ ، وذلك قبل أن يتصل جوهر بالمعز بأكثر من قرن . أضف إلى ذلك أن أباه كان يدعى عبد الله ، وهو اسم من الأسماء الشائعة بين المسلمين . وليس بعيدا أن يكون عبدالله هذا قد بادر إلى الاسلام الذى كان منتشرا فى هذه الجزيرة منذ زمن بعيد ، وأن جوهرا قد شب على دين أبيه . أما أجداده فلم ينقل لنا التاريخ شيئا عن إسلامهم ، وكل ما ذكروه عن سلسلة

---

(١) المقريزى : اتعاظ الحنفاص ٧١

(٢) الخطط جـ ١ ص ٣٨٠

(٣) أحد قواد المغاربة

نسب جوهر أنه أبو الحسين جوهر بن عبدالله . ولعل سكوت المؤرخين عن استقصاء ذلك النسب يرجع إلى أنهم لم يعثروا على شيء في ذلك . فقد كان جوهر مولى من الموالى . وقلما يهتدى المؤرخون إلى الوقوف على صحة نسب هؤلاء الموالى ، وذلك لعدم عناية الموالى أنفسهم بتدوين أنسابهم . أضف إلى ذلك أن هذا النسب كثيرا ما يكون عرضة للغموض والإبهام .

وكان لجوهر ولد يدعى الحسين ويكنى بأبي عبد الله . وكان ذا مواهب فذة ومقدرة حربية فائقة كما كان أبوه . وكان يلقب فى حياة أبيه « بالقائد ابن القائد » . (١)

---

(١) المقريزى : الخطط ج ٢ ص ١٤

الفصل الثانى

جوهر منذ اتصاله بالمعز إلى أن ولى فتح مصر

شب جوهر فى حجر الدولة الفاطمية ببلاد المغرب بين موالى المعز . ويحدثنا المقريزى (١) أن المعز قد اختص جوهراً من بين مواليه وكنّاه بأبى الحسين . وقد قرّبه الخليفة الفاطمى لما توسمه فيه من الاخلاص للدين والمواهب الفذة والثقافة الواسعة التى أخذ منها بأوفى نصيب .

ويطلق المؤرخون على جوهر « جوهرا الصّقلى » نسبة إلى موطنه الأصلى «صقلية » . ويظهر لنا أن كثيرين من أهل هذه الجزيرة قد انضووا تحت لواء الفاطميين وحاربوا فى صفوفهم بعد أن تأسست دولتهم فى بلاد المغرب سنة ٢٩٦ ﻫ ، بدليل ورود لفظ « الصقالبة » فى كثير من المصادر التى يعتمد عليها فى تاريخ الفاطميين . وقد شاع اطلاق لفظ الصقالبة على سكان جزيرة صقلية ؛ وهو خطأ واضح ، لأن الصقالبة من الجنس السلافى ، ومنه الروس والصرب والبلغار وغيرهم من أهالى البلاد المحيطة بالبحر الأسود . وبذلك كانت التسمية الصحيحة لأهل جزيرة صقلية هى « الصقليين » لا « الصقالبة » .

ظل جوهر يتدرج فى سلك المناصب ببلاد المغرب حتى اتخذه المعز فى سنة ٣٤١ ﻫ (٩٢٣ م) كاتباً له . ولقب منذ ذلك الحين « بجوهر الكاتب» . ولابد أن يكون المعز قد خبر جوهرا وعرف ما امتاز به من الصفات

---

(١) الخطط ج١ ص ٣٥٢

والمزايا قبل أن يلى الخلافة بزمن طويل ، إذ يبعد كل البعد أن يظفر جوهر بهذه السرعة إلى هذا المنصب الخطير ، وأن يتخذه المعز كاتباً له سنة ٣٤١ ﻫ وهى السنة التى ولى فيها الخلافة . فقد كانت الكتابة احدى المناصب العالية التى كان الخلفاء لايسندونها إلا لمن أنسوا فيهم الكفاءة والقدرة على معالجة الأمور ، كما كانت الخطوة الأولى إلى الوزارة إذا ماحاز صاحبها رضاء الخليفة .

وكان جوهر عند حسن ظن الخليفة به ، فرقاه إلى منصب الوزارة سنة ٣٤٧ ﻫ . ولا غرو فقد كان جوهر كاتباً بليغا ، كما كان عفا جم الأدب فى كتابته . يتبين ذلك فى عهد الصلح الذى كتبه للمصريين ، ذلك العهد الذى سنأتى على ذكره فى الباب التالى . وقد كان لهذه الصفات أبعد الأثر فى تهدئة خواطر المصريين وتأليف قلوبهم عقب الفتح الفاطمى

ويحدثنا ابن خلكان (١) أن المعز بعث جوهراً (صفر سنة ٣٤٧ ﻫ) ، لفتح مابقى من بلاد المغرب ، على رأس جيش كثيف يضم كثيراً من رجالات المغاربة ، ومن بينهم زيرى بن مناد الصنّهاجى الذى استخلف المعز ابنه بلكين على بلاد المغرب عند مارحل إلى مصر فى سنة ٣٦٢ ﻫ . سار جوهر إلى تاهرت (٢) فاستولى عليها ، ثم استأنف السير إلى مدينة فاس فناجز أهلها

(١) جـ٢ ص ١٠٢

(٢) تاهرت (أو تيهرت) اسم لمدينتين متقابلتين استولى عليهما أبو عبد الله الشيعى سنة ٢٩٦ ﻫ ، بعد أن ملكهما بنو رستم زهاء مائة وثلاثين سنة . وكان بها أسواق عامرة وحمامات كثيرة . وكان ميمون بن عبد الوهاب بن رستم بن بهرام (وبهرام مولى عثمان بن عفان) صاحب تاهرت رأس الأباضية وأمامهم ، وكانوا يسلمون عليه بالخلافة .

مدة ، ثم تركها لاستعصائها عليه . ثم يمّم سجلماسة (١) ، وكان قد قام بها رجل تلقب بالشاكر بالله وخاطبه الناس بأمير المؤمنين . فلما علم بدنو جوهر من المدينة هرب منها ، فطارده جوهر حتى قبض عليه وأسره . ثم أمعن جوهر السير فى بلاد المغرب الأقصى ، يفتتح مدنها مدينة تلو مدينة حتى وصل إلى ساحل المحيط الأطلسى . (٢) وقد أراد أن يبرهن للمعز إلى أى حد وصلت جيوشه فى فتوحها ، فأمر أن يصاد من سمك المحيط . ثم وضع هذا السمك فى قلال الماء وبعثه إلى المعز «وأعلمه أنه قد استولى على مامرّ به من المدائن والأمم وسلك ماهنالك من البلاد فافتتحها» . (٣)

ولما لم يتمكن جوهر من الاستيلاء على بلاد المغرب كلها ، لاستقصاء فتح فاس عليه ، عاد إلى هذه المدينة وعالج فتحها من جديد . وقد تم له ماأراد ، ففتحها عنوة واستولى عليها ، وقبض على صاحبها وعلى صاحب سجلماسة ، ثم وضعهما فى قفصين حملهما مع هدية إلى الخليفة المعز وهو فى المهدية .

وهكذا تمكن جوهر من توطيد الأمن فى جميع أرجاء بلاد المغرب فى أقل من سنة ، وإتمام الفتوحات التى بدأها أبو عبد الله الشيعى سنة ٢٩١ هـ (سنة ٨٩٦ م) ، فأخضع لسلطان المعز أهالى هذه البلاد ودانوا له بالطاعة والولاء . فلا عجب إذا عظم شأن جوهر عند المعز ، فاختاره لقيادة الحملة التى أرسلها لفتح مصر ، ولقبه « بالقائد » .

---

(١) سجلماسة : مدينة بالمغرب الأقصى ، يجرى فيها نهران أصلهما واحد ، فاذا قربا من المدينة تشعبا الى نهرين فيسلكانها شرقا وغربا . وتقع فى سهل أرض سبخة حول أرباض كثيرة ، وتبعد عن القيروان بستة وأربعين فرسخاً . وكان بناؤها سنة ١٤٠ هـ وفى سنة ١٦٠ هـ اتخذها بنو مدرار حاضرة ملكهم (البكرى ص ١٤٨ — ١٤٩)

(٢) المقريزى : الخطط جـ ١ ص ٣٥٢

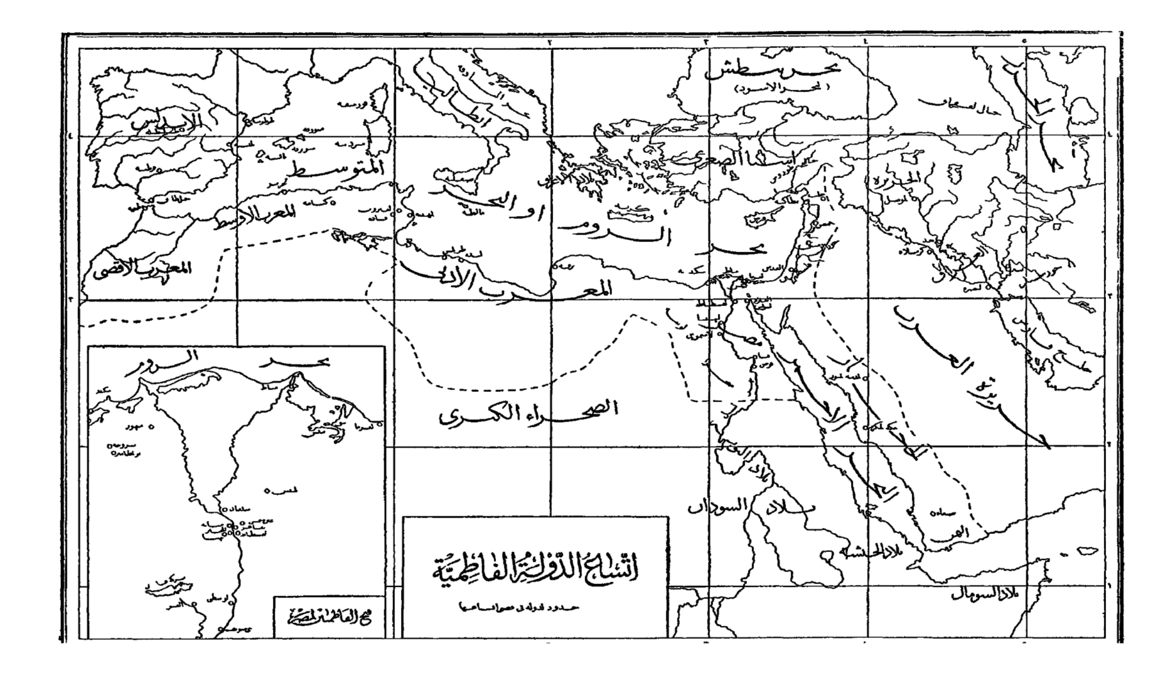
(٣) المقريزى : الخطط جـ ١ ص ٣٧٨ ،

وقد ذكر ابن خلكان (١) أن جوهراً مرض وهو فى بلاد المغرب مرضاً شديداً أشرف معه على الموت . فحزن المعز وعاده بنفسه فى بيته ، وهو شرف لا يناله إلا المقربون . وكأن نفس المعز كانت تحدثه بأن مصر لن تفتح إلا على يد جوهر . فلما عاد من زيارته قال : « هذا لا يموت ؛ وستفتح مصر على يديه » . وقد تحققت نبوءة المعز ، فشفى جوهر من مرضه . وسرعان ما أعدت معدات الحملة وخرج المعز لوداعه ، وهو ما سنفصله بعد .

---

(١) جـ ١ ص ١١٩ .

Stanley Lane-Poole: Egypt in The Middle Ages, p. 99.



اتساع الدولة الفاطمية
حدود الدولة في عصر اتساعها
مصر الفاطمية
بحر الروم
بحر نيطش
(البحر الاسود)
الاندلس
المغرب الاقصى
المغرب الاوسط
المتوسط
الصحراء الكبرى
بلاد السودان
بلاد الحبشة
بلاد السومال
مصر
اليمن
الجزيرة

الباب الثانى
استيلاء جوهر على مصر

الفصل الاول

حالة مصر قبيل الفتح الفاطمى

كانت مصر قبيل الفتح الفاطمى تحت حكم الإخشيديين منذ سنة ٣٢٣ ﻫ ، وظلت على ذلك إلى سنة ٣٥٨ ﻫ حيث فتحها جوهر قائد جيوش المعز لدين الله .

وقد أسس محمد بن طغج الإخشيد هذه الأسرة على أثر ولاية هذه البلاد للمرة الثانية سنة ٣٢٣ ﻫ . وكانت مصر فى عهده فى طمأنينة وهدوء . وكان الأمن مستتبا ، والرخاء شاملا ، والبلاد لا تزال قوية بجندها الذين كانت تدفع لهم رواتبهم بانتظام . أضف إلى ذلك قوة العباسيين الذين كانت مصر تابعة لهم تبعية اسمية . لذلك استطاعت مصر أن تقف فى وجه الفاطميين الذين جعلوا الاستيلاء عليها نصب أعينهم منذ خلافة عبيد الله المهدى . وقد زاد كل ذلك فى قوة الأخشيد حتى تمكن من صد الجيوش الفاطمية التى أغارت على هذه البلاد فى عهد القائم بن المهدى سنة ٣٢٤ ﻫ .

وقد كانت الصلة بين الاخشيد والخليفة العباسى على خير ما يكون من الصفاء وحسن التفاهم . (١) وظلت أواصر هذه الصلة قوية متينة الى أن جاء

---

(١) أبو المحاسن : ج ٢ ص ٢٧١

ابن رائق لصرف الاخشيد عن مصر بأمر الخليفة . لهذا لا نعجب إذا ثارت ثائرة الاخشيد ، فكتب إلى نائبه فى بغداد لاستطلاع رأى الخليفة الذى لم يحفل به ولم يرد عليه بشىء . وكان من أثر ذلك أن أمر الاخشيد بالغاء الخطبة للخليفة العباسى وإحلال اسم الخليفة القائم الفاطمى محله . وهذا العمل — كما سنرى — يعتبر خطوة تمهيدية للاعتراف بسلطان الفاطميين .

على أن الدولة العباسية لم تلبث أن ضعفت فى أواخر أيام الاخشيد الى حد كبير . وذلك على أثر تنازع السلطة فى بغداد بين توزون والبريدى اللذين كانا من قواد الأتراك . ومن ثم لم يجد الخليفة بداً من الاستنجاد بالإخشيد ، أقوى ولاته فى ذلك العصر . وسار الخليفة إلى الشام ، فلقيه الإخشيد فى مدينة الرقة (١) وعرض عليه البقاء معه فى الشام أو الذهاب إلى مصر . ودارت المفاوضات بين الإخشيد وتوزون الذى تعهد بحماية الخليفة ؛ فعاد الخليفة الى بغداد ، ورجع الإخشيد إلى مصر. أما توزون فإنه لم يرع لعهده حرمة ؛ فقد سمل عين الخليفة وحبسه ثم قتله (٢) . وجاء بعد ذلك بنو بويه لنصرة الخليفة العباسى الذى لم يلبث أن أصبح ألعوبة فى أيديهم .

مات الأخشيد فى فلسطين فى شهر ذى القعدة سنة ٣٣٤ ﻫ ودفن فى بيت المقدس ، فخلفه ابنه الاكبر أبو القاسم أنوجور (٣) وهو فى الخامسة عشرة من عمره . وقد قام بتدبير أمره أبو المسك كافور .

كان كافور عبداً خصياً مملوكاً لأحد أهالى مصر ، فاشتراه منه محمد بن طغج مؤسس الدولة الأخشيدية فيما بعد ، وكان إذ ذاك من كبار القواد .

---

(١) بلدة واقعة على الطريق بين العراق والشام .

(٢) أبو المحاسن : جـ ٢ ص ٣٠٧

(٣) أَنجور أو أُنوجور معناها بالعربية محمود على ماذكره ابن خلكان (جـ١ ص ٥٤٥) والسيوطى (جـ ٢ ص ٣٧٣)

وقد ذكر السيوطى(١)أن الأخشيد اشترى كافورا بثمانية عشر ديناراً ؛ وذكرالمقريزى(٢) أنهأرسل بهدية لمحمدبن طغج ، فتوسم فيه الذكاء وأبقاه عنده ورد الهدية إلى صاحبها .

ولما آلت ولاية مصر إلى الأخشيد ترقى كافور فى بلاطه ، فاختصه الأخشيد من بين عبيده ومنحه ثقته حتى جعله أتابك(٣) ولديه أبى القاسم أنوجور وأبى الحسن علىّ . ولا غرو فقد كان الإخشيد يرى فى كافور النجابة والهمة ، حتى ذكر بعض المؤرخين أنه قال : والله لاورث دولة ابن طغج إلاهذا العبد .

ولما توفى الاخشيد وخلفه ابنه أبوالقاسم أنوجور قبض كافورعلى زمام الأمور فى كافة البلاد الخاضعة لحكم الإخشيديين : وهى مصر والشام والحجاز . وقد استهل كافور عهده بالقضاء على الثورة التى قام بها المصريون فى وجهه . أضف إلى ذلك ماأصابه من الفوز فى طرد أبى الحسن علىّ الملقب بسيف الدولة الحمدانى من دمشق، والحيلولة بينه وبين المسير إلى مصر . وكان من أثر هذا الانتصار الذى دلت عليه هذه الغنائم التى استولى عليها المصريون فى هذه الحرب ، أن عظم شأن كافور ؛ فخاطبه علية القوم « بالأستاذ » ، ودُعى له على المنابر فى مصر والشام والحجاز (٤) باسم أبى المسك (٥) كافور ، تلك التسمية التى كنّاه بها الخليفة العباسى . وقد اكتسب محبة القواد وكبار رجال

---

(١) حسن المحاضرة فى أخبار مصر والقاهرة (ج ٢ ص ٣١٣) ، وابن خلكان (ج ١ ص ٤٣١) ، وأبو المحاسن (ج ٢ ص ٣١٥)

(٢) الخطط ج ٢ ص ٢٦

(٣) أتا معناه بالتركية الأب وبك معناه الأمير ، أى أبو الأمير أو مربى الأمير

(٤) ذكر المقريزى (الخطط : ج ٢ ص ٢٦) أن أهالى الفسطاط والرملة وطبرية لم يدعوا للاخشيد قبل سنة ٣٤٠ هـ .

(٥) أطلقت هذه الكنية عليه من قبيل التمليح والمشاكلة ؛ لأن المسك أسود

الدولة بما أغدقه عليهم من العطايا والهبات ، كما انبسطت يده فى كافة شؤون البلاد . (١)

وكان من أثر ازدياد نفوذ كافور أن ظهرت الوحشة بينه وبين انوجور ، وعمل كل منهما على الإيقاع بالآخر . وانقسم الجند فريقين : الاخشيدية والكافورية . ومات كافور فى ذى القعدة سنة ٣٤٩ ﻫ ، ولم يتجاوز التاسعة والعشرين ، حتى ذهب بعض المؤرخين إلى القول بأن كافورا قد دبر أمر وفاته بالسم . وقد أقام كافور أخاه أبا الحسن علىّ بن الأخشيد وهو فى الثالثة والعشرين . ولم يكن لهذا الأمير الجديد مع كافور شيء . فقد استبد بالأمر دونه وعيّن له - كما عين لأخيه من قبله - أربعمائة ألف دينار فى كل سنة (٢) ، ومنع الناس من الدخول إليه . ويحدثنا المقريزى أن أبا الحسن اعتل بعلة أخيه ، وأنه مات كمداً لحرمانه من سلطته الشرعية (المحرم سنة ٣٥٥ ﻫ) . وقد حال كافور بعد وفاة أبى الحسن دون تعيين ابنه أحمد ، بحجة أنه غير صالح للحكم لصغر سنه ؛ وبقيت مصر بغير أمير عدة أيام . وفى المحرم من سنة ٣٥٥ ﻫ أخرج كافور كتاباً من الخليفة المطيع العباسى بتقليده ولاية مصر والبلاد التى تحت سلطانها . فلم يغير لقبه الأستاذ ، ودُعى له بعد الخليفة على منابر مصر والشام والحجاز ، وكان يدعى له قبل ولايته بعد الخليفة والوالى (٣) .

ولم يكد كافور يستولى على ولاية مصر سنة ٣٥٥ ﻫ حتى أرسل المعز الفاطمى جيشاً لغزو هذه البلاد . فلما وصلت الجنود الفاطمية إلى الواحات ،

اللون ، وكان كافور كذلك . وكانت الدعابة فى إطلاق لفظ كافور عليه ، لأن الكافور أبيض وكان هو أسود اللون .

(١) Stanley Lane - Poole : The Story of Cairo p. 101 .

(٢) أبو المحاسن : ﺟ ٢ ص ٣١٥

(٣) المقريزى : الخطط ﺟ ٢ ص ٢٦ — ٢٧

جهز كافور جيشاً طرده وقتل منهم عدداً كبيرا . على أن كافوراً قد أحسن استقبال الدعاة الفاطميين الذين وفدوا عليه فى بلاطه من قِبَل المعز يدعونه إلى طاعته ، حتى كان من أثر ذلك أن مال إلى المذهب الفاطمى الكثيرون من الكتاب والجنود الأخشيدية والكافورية .

من ذلك نرى أن فكرة تحويل السلطة من العباسيين إلى الفاطميين كانت قد اختمرت فى نفوس المصريين . ولاشك فى أن الحالة السيئة التى سادت هذه البلاد فى السنين الأخيرة من حكم كافور قد ساعدت على زوال سلطان الأخشيديين عن هذه البلاد . فقد انتاب مصر البؤس والغلاء بدرجة لم ترها من قبل . وكان أشد تلك المحن أثراً انخفاض النيل الذى بدأ فى سنة ٣٥١ هـ ، وماتبعه من انتشار القحط وتفشى الوباء . فاشتد الغلاء وندر القمح ، وفشا الموت بحالة عجز معها الناس عن تكفين الموتى وعن مواراتهم ، حتى قيل إنه كان يلقى بجثث الموتى فى النيل لكثرتها (١) . وقد ذكر ابن خلكان أن عدد الموتى بلغ ٦٠٠،٠٠٠ . يضاف إلى ذلك عجز كافور عن صد القرامطة الذين أغاروا على الشام سنة ٣٥٢ هـ (سنة ٩٦٣ م) ونهبوا حجاج مصر فى طريقهم إلى مكة (سنة ٣٥٥ هـ) . وعدم استطاعته الدفاع عن مصر التى أغار عليها النوبيون حتى وصل ملكهم إلى اخميم ، وما كان من اضطراب الحكومة وعجز كافور عن دفع رواتب حرسه وغلمانه (٢) فتنكروا له وثاروا عليه (٣) .

توفى كافور فى ٢٠ جمادى الأولى سنة ٣٥٧ هـ (٩٦٨ م) وهو فى الستين من عمره ، بعد أن تولى أمر مصر والشام والحجاز زهاء إحدى وعشرين سنة ، ودفن فى دمشق .(٤) وقد ترك مصر فى حالة يرثى لها من الفوضى والاضطراب .

---

(١) المقريزى : الخطط جـ ٢ ص ٢٧

(٢) ذكر المقريزى أن عدد هؤلاء الغلمان بلغ ألفا وسبعمائة

(٣) G. Wiet : Précis d'Histoire Musulmane de l'Egypte P. 31

(٤) Stanley Lane-Poole : The story of Cairo p. 103.

وكان المذهب الفاطمى فى هذه البلاد قد بدأ ينمو ويطرد بين عدد كبير من المصريين . كل ذلك قد مهد الطريق أمام جوهر لفتح مصر وتحويلها من سلطان الأخشيديين إلى سلطان الفاطميين .

وكانت الدولة العباسية فى ذلك الوقت قد بلغت درجة كبيرة من الضعف والانحلال . فقد سادها الاضطراب والفوضى ، وانتقصت أطرافها ؛ واقتطعت منها دويلاتها ، وثار عليها ولاتها ، وكثرت الاغارة عليها من أعدائها ؛ وغدا الخليفة العباسى أشبه شىء بألعوبة فى أيدى بنى بويه (٣٣٤-٤٤٧ ﻫ ، ٩٤٥ - ١٠٥٥ م) ، وكانوا من الشيعة الغالين الذين استنجد بهم الخليفة لمعاونته وتخليصه من ظلم الأمراء . ولا غرو فإن سلطة الخليفة العباسى قد اضمحلت فى ذلك الوقت ولم تعد تمثل إلا فى الخطبة والسكة ، وذلك لاحتفاظ الأمراء بسلطتهم السياسية لدى الأهلين الذين كانوا يقدسون شخص الخليفة ويولونه احترامهم وتبجيلهم . وهذا ماحدا بسلاطين بنى بويه والسلاجقة إلى إظهار الخلفاء أمام الناس بمظهر القوة والقداسة الدينية وأن نفوذهم مستمد من الخليفة . (١)

بذلك لم يعد للخليفة من أمر تعيين الولاة شىء . فلما مات كافور اجتمع رجال البلاط فى مصر وولوا أبا الفوارس أحمد حفيد الأخشيد عرش مصر ، وكان فى الحادية عشرة من العمر . (٢) واتفق أن جاء إلى مصر أبو محمد الحسن بن عبيد الله أخى الأخشيد فارا من وجه القرامطة ، فأمّره المصريون على الجيش . فاستبد بالامر وقبض على الوزير جعفر بن الفرات واستولى على أمواله ثم عاد إلى الشام . (٣) وقد ظلت هذه البلاد بعد رحيل الحسن

---

(١) Gibbon : Decline And Fall the Roman Empire. VI. p. p. 54—55

(٢) ابن خلكان : جـ ١ ص ٤٥٧

(٣) ابن خلكان : جـ ٢ ص ٥٥ و ٥٦

Stanley Lane-Poole : History of Egypt in the Middle Ages p. 89–90

ابن عبيد الله إلى الشام سنة ٣٥٨ هـ ، نحوا من خمسة أشهر تحت إدارة ابن الفرات ، وصلت فى أثنائها إلى حالة من الفوضى عجز معها هذا الوزير عن إقرار الأمن فى نصابه وتخفيف ماحل بالأهلين من المصائب والويلات .(١)

من هذا كله نرى أن حالة الضعف والبؤس التى وصلت إليها مصر ، وعجز العباسيين عن إرسال الجيوش لصد الأعداء عنها قد مهّدا السبيل أمام المعز الفاطمى لفتح مصر ، ذلك الأمر الذى تمّ على يد جوهر القائد ، وهو ما سنبينه فى الفصل التالى .

---

(١) Stanley Lane-Poole: The Story of Cairo, p. 117.

الفصل الثانى

فتح مصر

عُنى الفاطميون عناية خاصة بغزو مصر ، لأن ذلك يُزيد فى رقعة أملاكهم ، ولأن استيلاءهم على هذه البلاد معناه امتداد نفوذهم على البلاد التى كانت خاضعة لسلطان الأخشيديين وهى الشام والحجاز . ولا غرو فان موقع مصر الجغرافى بين الشرق والغرب ، ووفرة ثروتها قد ساعدا على تحقيق أغراض الفاطميين من بث عقائد مذهبهم ، ونشر سلطانهم على البلاد الإسلامية فى الشرق . لهذا لا نعجب اذا رأينا الخلفاء الفاطميين منذ خلافة المهدى يدأبون على امتلاك هذه البلاد فيرسلون الحملات البرية والبحرية لفتحها . فقد أرسل عبيد الله المهدى (٢٩٧ - ٣٢٢ هـ) أول الخلفاء الفاطميين ثلاث حملات لغزو مصر : الأولى فى سنة ٣٠١ هـ ، والثانية فى سنة ٣٠٧ ، ولم تنته إلا فى سنة ٣٠٩ هـ فى حين ابتدأت الحملة الثالثة فى سنة ٣٢١ هـ واستمرت حتى عهد القائم بن المهدى سنة ٣٢٤ هـ . وقد فشلت هذه الحملات الثلاث فى الاستيلاء على مصر وضمها إلى سلطان الفاطميين ، لأن مصر كانت فى ذلك الوقت من القوة بحيث استطاعت أن ترد عنها غارات الأعداء

وقد انقطعت حملات الفاطميين على مصر فى المدة الباقية من خلافة القائم (٣٢٢ - ٣٣٤ هـ) وطوال عهد المنصور (٣٣٤ - ٣٤١ هـ) . لأن العباسيين كانوا لايزالون من القوة بحيث كان فى استطاعتهم الدفاع عن مصر ورد الفاطميين عنها ، كما أن الثورات التى قام بها الخوارج فى بلاد المغرب قد حالت دون تحقيق الغرض الذى كان يرمى اليه الفاطميون وهو فتح مصر . وأعظم هذه الثورات خطراً وأعظمها أثراً ثورة أبى يزيد مخلد بن كيداد ،

الذى قام بفتنة اشتد وقعها على الدولة الفاطمية فأفقدتها زهرة رجالها وجعلت بيت مالها خلواً من الصفراء والبيضاء .

وقد ظلت الحال على ذلك حتى جاء المعز رابع الخلفاء الفاطميين (٣٤١ - ٣٦٥ هـ و ٩٥٢ - و ٩٧٥ م) فأرسل جيشاً لغزو هذه البلاد ، فوصل إلى الواحات . ولكن كافورا الإخشيدى صدّه وحال دون تقدمه .

على أن ذلك لم يصرف المعز عن تنفيذ ماعزم عليه من فتح هذه البلاد . وقد ساعده على ذلك استتباب الأمن فى كافة أرجاء بلاد المغرب بعد إخماد ثورة أبى يزيد ، ثم قيام الاضطرابات وانتشار الفوضى فى مصر على أثر وفاة كافور ، وضعف الخلافة العباسية وانشغالها بدفع البيزنطيين عن بلادها ؛ أضف إلى ذلك عطف المتشيعين بمصر على الدعوة الفاطمية حتى راسلوا المعز يطلبون إليه إرسال جيش لغزو هذه البلاد .

وقد لعب يعقوب بن كلس (١) دوراً هاماً فى توجيه نظر المعز إلى حالة الضعف التى سادت مصر على أثر وفاة كافور .

كان الاستعداد لفتح مصر قائماً على قدم وساق ببلاد المغرب منذ سنة

---

(١) كان يعقوب يهودياً ، ولد فى بغداد وصحب أباه وهو فى صباه إلى الشام . ثم جاء إلى مصر سنة ٣٣٤ هـ ، واتصل بكافور بعد أن أصبحت السلطة فى يده فى عهد أنوجور وأبى الحسن علىّ ابنى الاخشيد . فأحله كافور من نفسه محل العطف والرعاية لِما آنسه فيه من الهمة والنشاط والأمانة ، فعينه فى ديوانه الخاص . ولم تزل حظوته تزداد عنده حتى جعله على خزائن الدولة . وقد أسلم فى شهر شعبان سنة ٣٥٦ هـ فزادت حظوته عند كافور واستثار بذلك حسد الوزير جعفر بن الفرات ، فحبسه ابن الفرات بعد وفاة كافور ، ولم يطلقه إلا بعد أن تدخل بعض رجالات الدولة فى الأمر وبعد أن بذل له ابن كلس الأموال . على أن ابن كلس لم يأمن على نفسه البقاء مع هذا الوزير . فسار خفية إلى بلاد المغرب حيث اتصل بالمعز ودله على وجوه ضعف مصر وحثه على النهوض بغزوها وضمها إلى أملاكه . وقد ظل ابن كلس فى بلاد المغرب حتى عاد إلى مصر سنة ٣٦٢ هـ مع المعز .

٣٥٦ هـ (٩٦٧ م) . فقد أمر المعز بانشاء الطرق وحفر الآبار فى طريق مصر ، وأقام المنازل على رأس كل مرحلة ، وجمع الأموال للقيام بنفقات هذه الحرب .

ولا غرو فقد كان المعز شديد الاهتمام بفتح هذه البلاد ومد نفوذه إلى الشرق . فلم يأل جهداً فى إعداد جيش كثيف وتزويده العُدد ، حتى قيل ان عدد هذا الجيش كان يزيد على مائة ألف مقاتل من شجعان كتامة (من قبائل البربر) الذين أغدق عليهم المعز الأرزاق والعطايا حتى بلغت هذه الأموال ـ على ماذهب إليه المقريزى ـ أربعة وعشرين مليون دينار .

ويتبين مبلغ اهتمام الفاطميين بفتح مصر وبسط نفوذهم على سورية وبلاد الحجاز من الخطبة التى ألقاها المعز على شيوخ كتامة قبل مسير هذه الحملة إلى مصر وفيها يقول : « ونحن محتاجون إلى نُصرتكم بأبدانكم وعقولكم . واعلموا أنكم إذا لزمتم ما آمركم به ، رجوت أن يقربَ الله علينا أمر المشرق كما قرب أمر المغرب بكم . » (١)

وقد رأى المعز فى جوهر الرجل الذى يعتمد عليه فى القيام بأعباء هذه الحملة . ولا غرو فقد كان جوهر من الرجال الأفذاذ الذين برهنوا على شجاعتهم وكفايتهم ومقدرتهم الحربية والإدارية . فقد دانت جميع بلاد المغرب من أقصاها إلى أقصاها للمعز ، بفضل ماأظهره جوهر من المهارة الحربية . وكان لجوهر أثر يذكر فى نشر هذا السلطان . فلما آن أوان فتح مصر جعله المعز على رأس الجيوش التى أعدها لغزوها . ومما يدل على مبلغ ثقة المعز به قوله حين خرج إلى مدينة رقادة (٢) لتوديع الجيوش الفاطمية

---

(١) المقريزى : اتعاظ الحنفاص ٦٠ ـ ٦١

(٢) رقادة : تبعد عن القيروان بأربعة أميال . وقد وصفها أبو عبيدالله البكرى فى كتابه : « المغرب فى ذكر بلاد إفريقية والمغرب » (ص ٢٧) فقال إنه يكثر بها البساتين وإنه ليس بإفريقية (بلاد تونس الحالية) أعدل هواء ولا أطيب تربة منها . وقيل ان أحد أولاد الأغلب قد أصابه الأرق فأشار عليه طبيبه بالخروج إلى

بقيادة جوهر « والله لو خرج جوهر وحده لفتح مصر . وليدخلن إلى مصر بالأردية من غير حرب ، ولينزلن فى خرابات ابن طولون ، ويبنى مدينة تقهر الدنيا » . ونقف من عبارة المعز على ثلاثة أمور :

الأول - غلو المعز فى مدح قائده ، حتى كان يرى فيه أنه يستطيع فتح مصر وحده مع استعصائها على من سبقه من قواد الفاطميين قبله ومعهم الجيوش الكثيفة . وقد كان لثقة المعز بجوهر الأثر الكبير فى نفسه مما جعله يتفانى فى القتال ليكون عند ظن الخليفة به .

الثانى - وقوف المعز وقوفاً تاماً على أحوال مصر وعجزها عن صد الجيوش الفاطمية .

الثالث - أن المعز كان يرمى إلى اتخاذ حاضرة جديدة للفاطميين فى موضع خرائب القطائع التى أسسها أحمد بن طولون أو قريباً منها لينشر منها نفوذه الدينى والسياسى على بلاد الشرق . أضف إلى ذلك أن تسمية هذه الحاضرة بهذا الاسم « القاهرة » كان فى نفس المعز قبل تأسيسها على يد جوهر ، مما يمكن أن يدحض ماذهب إليه المؤرخون من رصد نجم المدينة وظهور « القاهر » الذى اشتق منه اسم هذه الحاضرة . ولم تقتصر ثقة المعز بجوهر عند هذا الحد . فقد ذكر لنا ابن خلكان (١) أن الخليفة الفاطمى أمر أولاده

موضع رقادة . فنام فيه نوماً هادئاً . فسمى هذا الموضع من ذلك الوقت «رقادة» . واتخذها ابراهيم بن محمد بن زيادة الله الثانى (٢٦١-٢٨٩ هـ ، ٨٧٢ - ٩٠٢ م) . ومن ثم أخذت فى العمران وكثرت فيها المساجد والقصور والحمامات .

ولم تزل مدينة رقادة مقر ملك بنى الأغلب إلى أن هرب منها زيادة الله فارا من وجه أبى عبدالشيعى . فسكنها عبيدالله المهدى إلى أن اتخذ مدينة المهدية حاضرة لملكه وانتقل إليها سنة ٣٠٨ هـ ، فأخذت رقادة فى الخراب شيئاً فشيئاً حتى أصبحت أثراً بعد عين .

(١) ج ١ ص ١١٩ ، المقريزى : الخطط ج ١ ص ٣٧٨

ورجالات دولته بالترجل بين يدى جوهر عند ذهابهم لوداعه حين خروجه على رأس الجيوش الفاطمية لفتح مصر ، كما أمر المعز صاحب برقة بالترجل لجوهر عند لقائه وتقبيل يده . وقد كبر ذلك على الوالى وبذل مائة ألف دينار على أن يُعفى من ذلك ، ولكنه لم يظفر بشيء . وبعد أن قبّل جوهر يد الخليفة وحافر فرسه أذِن له بالمسير . ولما عاد إلى قصره بعث إلى جوهر كل ما كان عليه من لباس خارجى عدا خاتمه .

خرج جوهر من القيروان(١) فى الرابع عشر من شهر ربيع الثانى سنة ٣٥٨ هـ (فبراير سنة ٩٦٩ م) ، وكان معه ألف ومائتا صندوق من الأموال على الجمال ، وجند يربو عدده على مائة ألف (٢) ، وخيل يزيد عددها على عدد الجند بكثير . ويحدثنا ابن زولاق (٣) أن أبا جعفر مسلم العلوى الذى تم الصلح بين المصريين والفاطميين على يده ، سئل عند رجوعه من تروجه عن مقدار عسكر جوهر فقال : مثل جمع عرفات كثرة وعُدّة . وقد وصف ابن هانىء الأندلسى شاعر المعز هذا الجيش فى قصيدة طويلة قال فى مطلعها :

رأيتُ بعينى فوق ما كنتُ أسمع وقد راعنى يومٌ من الحشر أروعُ
غداةَ كأن الأفق قد سُدّ بمثله فعاد غروب الشمس من حيث تطلع(٤)

وصل جوهر إلى برقة ، فأدى له صاحبها التحية على النحو الذى أمره به المعز . ثم استأنف جوهر المسير إلى الاسكندرية ، ففتحت له أبوابها من غير مقاومة ، فدخلها ومنع جنده من التعرض للأهلين . (٥)

---

(١) القيروان أكبر مدائن بلاد المغرب ، وتقع على بعد أربعة أميال من مدينة رقادة . وتشتهر بمساجدها وحدائقها الغنـاء ومبانيها الفخمة (البكرى : كتاب المغرب فى ذكر بلاد إفريقية والمغرب ص ٢٢ — ٢٧)

(٢) ابن خلكان : جـ١ ص١١٩ ، G. Migeon : Art Mussulman, tome I. p. 41

(٣) المقريزى : اتعاظ الحنفا ص ٧١

(٤) ديوان ابن هانىء الأندلسى ص ١٠٦ — ١١٢

(٥) يحيى بن سعيد ص ١٣٢

من هذا نرى أن جوهراً كان ذا رأى صائب وسياسة حكيمة ، تألف بها قلوب المصريين . فقد حال دون ماعساه ينجم من الشغب وأعمال السلب والنهب التى يرتكبها الجنود الفاتحون . ويرجع الفضل فى ذلك إلى إغداقه العطايا والأرزاق على جنوده مما لم يترك فى نفس جندى منهم حاجة . وهذا يفسر مبلغ السهولة التى تم بها فتح سائر البلاد المصرية .

وقد اضطرب أهل الفسطاط حين علموا باستيلاء جوهر على الاسكندرية . فعقد الوزير جعفر بن الفرات مجلساً من كبار رجال الدولة للنظر فى الحالة التى وصلت إليها البلاد ؛ فأجمعوا رأيهم على طلب الصلح ، وندبوا الوزير ابن الفرات للتفاوض مع جوهر فى شروط الصلح وطلب الأمان على أرواحهم وأملاكهم . فأناب الوزير عنه أبا جعفر مسلم ، وهو من الأشراف العلويين ومن ذوى المكانة عند المصريين . فقبل أبو جعفر القيام بهذه المهمة واستصحب معه جماعة من ذوى الرأى والنفوذ فى البلاد . (١)

وكان إسناد رياسة هذا الوفد إلى أبى جعفر من الأمور التى دلت على حكمة ابن الفرات وبُعد نظره . فقد كان نَدْب رسول من العلويين للقيام بهذه المهمة سببا فى إجابة مطالب المصريين . وقد تجلى ذلك فى هذه الوثيقة التى اشتملت على شروط الصلح . (٢) وقد توجه هذا الوفد فى يوم الاثنين ١٨ رجب سنة ٣٥٨ هـ وشيعه جمع كبير من الأهالى .

وقد تلاقى أعضاء هذا الوفد مع جوهر فى مدينة تروجه (٣)، فقبل جوهر ما عرضوه عليه .

وبذلك تم عقد الصلح بين المصريين والفاطميين ، ذلك الصلح الذى أودعه جوهر فى هذه الوثيقة التاريخية التى ننقلها عن المقريزى (٤) فيما يلى :

---

(١) الكندى ــ ص ٥٨٤ ، يحيي بن سعيد ص ١٣٢

(٢) الدكتور حسن ابراهيم حسن : الفاطميون فى مصر ص ١٠٦

(٣) بلدة قريبة من الاسكندرية

(٤) اتعاظ الحنفا ص ٦٧ ــ ٧٠

ذكرها فى كتاب أمانكم ، فذكرتها إجابة لكم تطمينا لأنفسكم . فلم يكن لذكرها معنى ولا فى نشرها فائدة ؛ إذ كان الإسلام سنة واحدة وشريعة متبعة وهى إقامتكم على مذهبكم وأن تتركوا على ما كنتم عليه من أداء المفروض فى العلم والاجتماع عليه فى جوامعكم ومساجدكم وثباتكم على ما كان عليه سلف الأمة من الصحابة رضى الله عنهم والتابعين بعدهم وفقهاء الأمصار الذين جرت الأحكام بمذاهبهم وفتواهم ؛ وأن يجرى الأذان والصلاة وصيام شهر رمضان وفطره وقيام لياليه والزكاة والحج والجهاد على ما أمر الله فى كتابه ونصه نبيه صلى الله عليه فى سنته وأجرى أهل الذمه على ما كانوا عليه .
ولكم علىّ أمان الله التام العام الدائم المتصل الشامل الكامل المتجدد المتأكد على الأيام وكرور الأعوام فى أنفسكم وأموالكم وأهليكم ونعمكم وضياعكم ورباعكم وقليلكم وكثيركم ، وعلى أنه لا يُعترض (عليكم) معترض ولا يتجنى عليكم متجن ولا يتعقب عليكم متعقب ، وعلى أنكم تصانون وتحفظون وتحرسون ويُذب عنكم ويمنع منكم فلا يتعرض إلى آذاكم ولا يُسارع أحد فى الاعتداء عليكم ولا فى الاستطالة على قويكم فضلا عن ضعيفكم . وعلى أن لا أزال مجتهداً فيما يعمكم صلاحه ويشملكم نفعه ويصل إليكم خيره وتتعرفون بركته وتغتبطون معه بطاعة مولانا وسيدنا أمير المؤمنين صلوات الله عليه .
ولكم علىّ الوفاء بما التزمته وأعطيتكم إياه عَهْدَ الله وغليظ ميثاقه وذمته وذمة أنبيائه ورسله وذمة الأئمة موالينا أمراء المؤمنين قدّس الله أرواحهم وذمة مولانا أمير المؤمنين المعز لدين الله صلوات الله عليه فتصرحون بها وتعلنون بالانصراف إليها وتخرجون إلىّ وتسلمون علىّ وتكونون بين يدىّ إلى أن أعبر الجسر وأنزل فى المناخ المبارك وتحفظون وتحافظون من بعد على الطاعة وتثابرون عليها وتسارعون إلى فروضها ولا تخذلون ولياً لمولانا وسيدنا أمير المؤمنين صلوات الله عليه وتلزمون ماأمرتكم به وفقكم الله وأرشدكم أجمعين »

هذا هو نص العهد الذى قطعه جوهر على نفسه وكتبه بيده فى اليوم الثامن من شهر شعبان سنة ٣٥٨ ﻫ وأشهد جماعة الحاضرين عليه . وفى هذا اليوم جلس أعضاء هذا الوفد على مائدة جوهر وذلك تمكينا لأواصر المودة بينه وبين رجالات مصر خاصة وتأليفا لقلوب المصريين عامة .

وهذه سياسة رشيدة من جانب جوهر ، تنطوى على شىء كثير من الحكمة وبُعد النظر . ونحن نعلم ما للمآدب من الأثر فى حل المعضلات السياسية والدينية . ونلاحظ فى هذا الكتاب أموراً ثلاثة :

الأول ـ تعهد جوهر بنشر العدل وبث الطمأنينة فى النفوس . وذلك بحماية مصر ضد هجمات المغيرين عليها . وكان لذلك العهد أهمية كبيرة . فقد امتدت الفتوح البيزنطية إلى بلاد الشام التى كانت خاضعة للدولة الإخشيدية ، وكان من الطبيعى أن تمتد غاراتهم إلى مصر نفسها التى كان يهددها خطر القرامطة . ولاشك أن حالة الضعف التى وصلت إليها مصر بعد وفاة كافور ، ومانزل بها من وباء وما أصابها من قحط من جراء انخفاض النيل ـ كل ذلك قد أدّى إلى انتشار الفوضى فى البلاد . ولم يجهل جوهر هذه الحالة السيئة التى وصلت إليها مصر ، فضرب على هذا الوتر الحسّاس ، وهو حماية الأهالى من قطاع الطرق وغيرهم من العابثين بالنظام والأمن العام .

الثانى ـ ترك الحرية للمصريين فى إقامة شعائرهم الدينية والعمل على إصلاح المساجد وترميمها لاجتماع المسلمين فيها للصلاة والنظر فى أمورهم . على أننا نرى جوهراً لم يغفل الإشادة بذكر العلويين والاعتراف بأحقيتهم فى الخلافة . ومعنى ذلك تمهيد السبيل لنشر المذهب الشيعى مذهب الفاطميين .

الثالث ـ قيام جوهر بما تتطلبه البلاد من وجوه الاصلاح ، وذلك بتحسين السكة ومنع ماعسى أن يتطرق إليها من الغش والزيف ، وإصلاح

الجسور ، وتجميل البلاد ، وماإلى ذلك من الإصلاحات التى يُعنى بها كل فاتح مصلح .

وفى اليوم السابع من شهر شعبان عاد الوفد إلى الفسطاط يحمل عهد الصلح ، وعرضه على الأهالى فلم يقبلوه . وصمم الأخشيديون وجماعة كافور والجندعلى مواصلة قتال الفاطميين ، وعهدوا إلى «نحرير» بقيادة جيوشهم ؛ فنزل إلى الجيزة ، وأخذ يستعد لملاقاة العدو . (١)

وفى الحادى عشر من شعبان من هذه السنة وصل جوهر إلى الجيزة وسار إلى منية الصيادين ، ثم استولى على المخاضة بمنية شلقان حيث عبرالنيل إلى مدينة مصر ؛ فلحق به جعفر بن فلاح (الذى تولى فتح الشام فيما بعد) فاستحثه جوهر على عبور النهر مع المغاربة ليكون قدوة لهم وقال له : لهذا اليوم أرادك المعز ! فخلع جعفر ثيابه وعبر النهر مرتديا سراويله ، فتبعه المغاربة . (٢)

لقى الاخشيديون المغاربة ودار القتال بين الفريقين فدارت الدائرة على المصريين وقتل منهم خلق كثير . وكان من أثر هذه الهزيمة التى لحقت بالجنود المصرية أن عبر بعض فالتهم النهروسلموا إلى جوهر ، ومن ثم سهل القضاء على البقية الباقية من الجنود المصريين الذين ظلوا مرابطين على المخاضة لحراستها . فقد انتزع جوهر ملابسه الخارجية ، وعبر النيل مع رجاله فى السفن ، وانقضوا عليهم وشتتوا شملهم (الثلاثاء ١٦ شعبان سنة ٣٥٨ هـ).(٣)

وبذلك تم فتح مصر ودخلت فى حوزة الفاطميين فاتخذوها جسراً يعبرون عليه إلى المشرق لتحقيق أغراضهم السياسية والدينية . وقد تم ذلك

---

(١) ابن خلكان جـ ١ ص ١٤٩ ويحيي بن سعيد ص١٣٢ و١٣٣

(٢) ابن خلكان جـ ١ ص ١١٦

(٣) أبو المحاسن ص ٤٠٧ و ٤٠٨ والمقريزى : اتعاظ الحنفا ص ٧٢

الفتح بسهولة لم تكن منتظرة بفضل ماامتاز به جوهر من المهارة الحربية والسياسية .

وقد توقع المصريون أن يعاملهم جوهر معاملة من فتحت بلادهم عنوة فيقسم بلادهم بين الجند . لهذا لانعجب إذا رأينا المصريين يخشون عاقبة خروجهم على العهد الذى عرضه عليهم الوفد الذى أنابوه عنهم فى مفاوضة جوهر فى الصلح فيرجون أباجعفر مسلم العلوى أن يتداخل فى الأمر من جديد ويطلب الأمان من جوهر . وعلى الرغم من أن جوهراً قد فتح هذه البلاد عنوة فقد عامل أهلها معاملةمن فتحت بلادهمصلحاً ،كما عاملهم عمرو ابن العاص من قبل فتألف بذلك قلوبهم وا كتسب محبتهم فدانوا له بالطاعة ورضوا بحكمه .

وهنا نرى جوهراً يقيم الدليل على بعد نظره وحسن سياسته . فقد عفا عن المصريين وأذاع على جنوده بيانا يحرم فيه عليهم الاتيان بأى عمل من أعمال العنف والشدة ،كما جدد لأهل مصر الأمان وضمن لهم استتباب الأمن فى البلاد فىذلك الكتاب الذى ينمعن أدب القائد الفاطمىوتواضعه وهو فى كامل قوته وفتوته . وهاك نص هذا العهد بعد البسملة نقلا عن المقريزى : (٤)

« وصل كتاب الشريف الجليل أطال الله بقاءه وأدام عزه وتأييده وعلوه وهو المهنا بما هنأ به من الفتح الميمون فوقفت على ماسأل من إعادة الأمان الأول وقد أعدته على حاله وجعلت إلى الشريف أيده الله أن يؤمن كيف رأى وكيف أحب ويزيد على ما كتبته كيف شاء فهو أمانى وعن إذنى وإذنمولانا وسيدنا أمير المؤمنين صلوات الله عليه . وقد كتبت إلى الوزير أيدهالله بالاحتياط على دور الهاربين إلى أن يرجعوا إلىالطاعة ويدخلوا فيما

(١) اتعاظ الحنفا ص ٧٢

دخلت فيه الجماعة ويعمل الشريف أيده الله على لقائى فى يوم الثلاثاء لسبع عشرة تخلو من شعبان ».

وبذلك زالت مخاوف الأهلين وأصبحوا فى أمن ودَعة، ولاسيما بعد أن طاف صاحبُ الشرطة السفلى بصحبة رسول جوهر يحمل علماً عليه اسم المعز لدين الله وأمَّنا الناس من جديد وأعلنا عدم مطالبتهم بأية كلفة أو مؤونة. فابتهج الناس وهدأت المدينة وعاد الأمن إلى نصابه. فلما كان الغد (الثلاثاء ١٧ شعبان) خرج أبو جعفر مسلم العلوى والوزير جعفر بن الفرات وسائر الأشراف والقضاة والعلماء والتجار إلى الجيزة. فلما وصلوا إليها أقبل القائد جوهر فى عساكره ووقف الشريف عن يمينه والوزير عن يساره، فصاح بعض حجاب جوهر « الأرضَ» فقبَّلوا كلهم الارض بين يديه عدا الشريف والوزير. وتقدَّم الناس واحداً واحداً، فلما فرغوا من السلام عليه عادوا إلى الفسطاط.

ولما غربت الشمس عبرت الجنود الفاطمية الجسر وبين أيديهم الصناديق الملأى بالأموال محمولة على البغال. ثم أقبل جوهر فى حُلَّة مُذَهبة فى فرسانه ورَجالته وعسكر بجيشه فى الموضع الذى أختط فيه مدينة القاهرة. وحين ذهب المصريون فى اليوم التالى لتهنئة جوهر وجدوه قد حفر أساس قصر المعز فى الليل. (١)

ولما اتصل بالمعز نبأ فتح مصر سرَّ سروراً عظيماً وأنشد محمد بن هانىء شاعر بلاطه قصيدة طويلة مطلعها:

تقول بنو العباس هل فُتحت مصرُ ... فقل لبنى العبَّاس قد قُضى الأمر
وقد جاوز الاسكندرية جوهرٌ ... تصاحبه البشرى ويَقدُمه النصر (٢)

---

(١) ابن خلكان: وفيات الأعيان جـ ١ ص ١٢٠ و المقريزى: اتعاظ الحنفا ص ٧٢

(٢) دايون ابن هانىء الأندلسى ص ٨٦

وهكذا زال سلطان الأخشيديين والعباسين جميعاً عن مصر واصبحت هذه البلاد ولاية فاطمية . فغدت الدولة الفاطمية تمتد من المحيط الأطلسى غرباً إلى البحر الأحمر شرقاً . « ونافست القاهرة حاضرة الدولة الفاطمية الشيعية الفتية بغداد حاضرة الدولة العباسية السنية المتداعية . وقد كان لتلك المنافسة أبعد الأثر فى الحضارة » (١)

وكان استيلاء الفاطميين على هذه البلاد الخطوة الأولى لمد نفوذهم إلى بلاد الشام وفلسطين والحجاز التى كانت جزءاً من أملاك الدولة الأخشيدية . وبذلك تحقق الغرض الأول الذى كان يرمى إليه الفاطميون وهو إنشاء دولة فاطمية فى الشرق والغرب . (٢)

---

(١) Stanley Lane-Poole : The story of Cairo p. 119-120

(٢) Stanley Lane-Poole : The Mohammadan Dynasties p. 71

الباب الثالث
سياسة جوهر فى مصر

الفصل الأول

فتح سورية

قد ذكرنا أن الغرض الأول من استيلاء جوهر على مصر هو بسط نفوذ الفاطميين على المشرق. فإن استيلاءهم على مصر معناه الوصول إلى بلاد الشام وفلسطين والحجاز، وإنشاء دولة فاطمية فى المشرق والمغرب. حتى إذا تم لهم ذلك استطاعوا أن يمدوا نفوذهم إلى بغداد نفسها حاضرة الدولة العباسية فى ذلك الحين.

١ — حملة جعفر بن فلاح على سورية

كانت بلاد الشام فى ذلك الوقت تابعة للدولة الأخشيدية. ولم يجهل الإخشيدون ـ وقد دالت دولتهم فى مصر ـ ما كانت ترمى إليه السياسة الفاطمية من الاستيلاء على بلاد الشام وفلسطين والحجاز. لذلك أعد الحسن ابن عبيد الله ان طغج الأخشيدى والى الرملة ودمشق العدة لملاقاة الفاطميين، فاستخلف شمولا الأخشيدى على دمشق وسار هو إلى الرملة. على أن شمولا لم يخلص للحسن، وكاتب جوهراً يدعوه للحضور إلى دمشق ووعده العون على فتحها، ثم تقاعد عن نصرة الحسن حين طلب اليه القدوم عليه، فى الوقت الذى وصلت فيه جيوش الفاطميين إلى فلسطين بقيادة

جعفر بن فلاح ، من قبيلة كتامة من البربر وأحد قواد المعز الذين أرسلهم إلى مصر مع جوهر . فلما عزم جوهر على فتح الشام وفلسطين عهد إلى جعفر بالقيام بهذه المهمة لما اشتهر به من الشجاعة وحُسن القيادة . هذا إلى أن جوهراً أراد بذلك أن يُبعد جعفرا عنه ويطوح به فى بلاد الشام حتى لا ينافسه فى مصر . فقد كان جعفر يرى فى نفسه أنه أفضل من جوهر وأحق منه بإمرة مصر

سار جعفر إلى بلاد الشام وكاتب ولاة الأقاليم يدعوهم إلى طاعة المعز ويعدهم حسن المكافأة . ثم التقى جيش جعفر مع جيش الحسن بن عبيد الله فى الرّملة ، فدارت الدائرة على الحسن وأسر هو وكثير من جنده(١) . ثم سيق إلى الفسطاط فحبس بها ، ثم أرسل إلى بلاد المغرب فبقى بها حتى مات سنة ٣٧١ هـ .

استأنف جعفر بعد ذلك السير إلى طبرية لمحاربة فاتك الذى وليها من قبل الأخشيديين ، فاستولى على المدينة من غير أن يلقى مقاومة تذكر . ولما علم أهل دمشق باستيلاء جعفر على الرملة وطبرية خشوا بأسه ، فأوفدوا إليه جماعة من كبار رجالهم . وقد اتفق وصولهم فى اليوم الذى قتل فيه فاتك والى طبرية واشتعال نار الفتنة على أثر مقتله . فلم يحسن جعفر وفادتهم ، فعادوا إلى دمشق ساخطين عليه وعلى جنده من المغاربة (٢) . وهذا يفسر لنا الصعوبة التى لاقاها جعفر فى استيلائه على دمشق .

وبعد أن هزم جعفر بنى عقيل ومن إليهم من العرب فى حوران وطارد الفالة منهم إلى حمص ، سارت جنوده إلى دمشق ، وكان شمول قد تركها لملاقاة جعفر بطبرية . فاشتدت الفوضى فى المدينة وعم الاضطراب واستولى الذعر على القلوب وحمل الناس السلاح ، وخرج أهل دمشق مشاة وفرسانا

---

(١) أبو المحاسن : جـ ٢ ص ٣٠٩

(٢) المقريزى : اتعاظ الحنفا ص ٨١

لقتالهم . واستمر القتال طول يوم الجمعة حتى غروب الشمس ، ثم اشتد على أثر وصول جعفر إلى دمشق (١٠ ذى الحجة سنة ٣٥٨ هـ) . وحملت المغاربة على جند الشام وهزموهم ، وقتلوا منهم عدداً كبيراً ثم دخلوا المدينة واستولوا عليها فى المحرم سنة ٣٥٩هـ، ثم ألقوا النار فى أسواقها ورحابها .

ولما رأى أهل دمشق هزيمة جندهم وأنه لاقبل لهم بالفاطميين ، خرج بعض ذوى أهل الرأى والجاه منهم لمقابلة جعفر ، وطلبوا اليه العمل على اصلاح حال مدينتهم واعادتها الى ما كانت عليه . فقبض عليهم بعض المغاربة وسلبوهم ثيابهم وجرحوا كثيرين منهم ، فأثار هذا سخط أهل دمشق فشقوا عصا الطاعة وأذكوا نار الفتنة .

على ان هذه الفتنة لم تلبث أن خمدت أمام قوة جعفر ، ومن ثم لم يجد الأهلون بدا من أن يخطبوا وده . فذهبت جماعة منهم لمقابلته وطلب الأمان منه . فلم يقبل منهم جعفر ذلك حتى يخرجوا اليه ومعهم نساؤهم مكشوفات الشعور فيتمرغن فى التراب بين يديه (١) ، فرضوا بذلك صاغرين . على أنه لم يلبث أن هدأت ثائرته فتبسط معهم فى الحديث واستقر الرأى بينه وبينهم على أن يصلى هو ورجاله يوم الجمعة فى مسجد دمشق . وفى ذلك اليوم ركب جعفر فى أصحابه ودخل المدينة وصلى بالجامع ، حيث حذف اسم الخليفة العباسى من الخطبة وذكر مكانه اسم الخليفة الفاطمى ، وكان ذلك فى المحرم سنة ٣٥٩ هـ (٢) . وقد انتهز أصحاب جعفر فرصة وجودهم بالمدينة فنهبوا الناس ، فثار أهل دمشق عليهم وقتلوا كثيرين منهم . ولم يجد شيوخ المدينة بداً من مقابلة جعفر لإعلان استيائهم مما حدث وطلب الأمان من جديد ، فقال لهم « دخل رجال أمير المؤمنين للصلاة فقتلتموهم » (٣) . ثم هددهم باستعمال

---

(١) المقريزى : اتعاظ الحنفا ص ٨٢

(٢) أبو المحاسن : جـ ٢ ص ٤٠٩

(٣) المقريزى : اتعاظ الحنفا ص ٨٣

العنف والقسوة معهم. فهدأوا روعه وتلطفوا معه فى القول، حتى وعدهم العفو إذا هم دفعوا دية من قتل. فجمعوا له الأموال الكثيرة حتى ساءت حال المدينة لما نزل بأهلها من الإرهاق.

من ذلك يتبين لنا هوادة جعفر فى ضبط جنده وكبح جماحهم حتى بلغ بهم الاستهتار بمركز القيادة أن كانوا يعترضون وفود الصلح والسلام من أهل دمشق، فيقتلونهم ويسلبون أموالهم وثيابهم ؛ مما أثار نفوس الأهلين عليهم ووقف حجر عثرة فى سبيل فتح هذه المدينة. وهذا يوضح لنا حكمة جوهر وبُعد نظره وحُسن سياسته. فانه لما دخل الاسكندرية أمر جنده بالكف عن أعمال السلب والنهب حتى دانت له البلاد وألقت زمامها اليه، مع أن جنود جوهر من المغاربة الذين تم على يديهم فتح مصر، هم جنود جعفر بن فلاح الذين وجههم جوهر لفتح بلاد الشام وفلسطين.

وقد رأى جعفر أن الاضطرابات لن تهدأ فى دمشق وأنه لن يستطيع توطيد سلطان الفاطميين فيها، إلا بالقضاء على زعماء الفتنة. فأرسل جنده من المغاربة فى طلبهم، فقبضوا عليهم. فأمر جعفر بهم فضربت أعناقهم وصلبت جثثهم وعلقت رءوسهم على الأبواب ؛ وكان من بين هؤلاء اسحق بن عصودا. ولم ينج منهم إلا أبو القاسم بن أبى يعلى العباسى ومحمد بن عصودا، وكانا من أظهر زعماء الثورة. أما ابن أبى يعلى فقد هرب من الشام يريد بغداد، فقبض عليه عند تدمر وأرسل الى جعفر حيث شهّر به. فحمل على جمل وفوق رأسه قلنسوة وفى لحيته ريش، وبيده قصبة (١). ثم بعث به إلى مصر. وقد ذكر أبو المحاسن (٢) أن الشريف أبا القاسم لما هرب إلى بغداد قال ابن فلاح « من أتانى به فله ألف درهم ». فلقيه ابن غلبان العدوى فقبض عليه وساقه إلى ابن فلاح فشهر به. ثم طلبه ليلا وقال له: « ما الذى حملك على ما صنعت، ومن ندبك إلى ذلك؟ » فقال أبو القاسم: « ما حدثنى به أحد وانما هو أمر قُدِّر »

---

(١) المقريزى: اتعاظ الحنفا ص ٨٣

(٢) ج ٢ ص ٤١٠

فرقّ له جعفر ووعده أن يكاتب فيه القائد جوهراً . ولا غرو فقد كان ابن فلاح يحب العلويين ، فأحسن اليه وأكرمه . أما محمد بن عصودا فقد لحق بالقرامطة فى الأحساء هووظالم بن موهوب العقيلى والى حوران من قِبَل الإخشيديين .

وبذلك تم فتح بلاد الشام وفلسطين ، ودان أهلها لسلطان الفاطميين ، فتحقق الغرض الذى كانت ترمى اليه السياسة الفاطمية من فتح مصر واتخاذها جسراً يعبر عليه الفاطميون إلى بلاد المشرق . على أن فتح هذه البلاد ، وان كان قد تم على يد جعفر بن فلاح ، فقد كان لسياسة هذا القائد ، وما ارتكبه من أعمال العنف والشدة واطلاقه العنان لجنده للعبث بالنظام والاستهتار بأرواح الأهلين ، أثر سيىء فى صرف قلوبهم عنه ومشايعة زعمائهم وتآمرهم ضده وضد جنده من المغاربة . ومن ثم كانوا لايدعون فرصة تمر دون أن ينتهزوها للخروج على سلطان الفاطميين . وقد ظهر أثر هذه السياسة الخرقاء فى استنجاد أهل الشام بالقرامطة وأفتكين مما سنفصله بعد .

٢ — تهديد سلطان الفاطميين فى سورية

ا — القرامطة

كانت دمشق قبل استيلاء الفاطميين عليها تدفع لزعيم القرامطة الحسن ابن أحمد جزية سنوية تقدرها ثلاثمائة ألف دينار . فلما استولى عليها الفاطميون قطعوا الجزية عنه ، فصمم القرامطة على إكراههم على دفعها . ولم يتردد الحسن القرمطى فى أن يطلب التحالف مع الخليفة العباسى السنى فى بغداد ضد الفاطميين الشيعيين فى مصر . بيد أن الخليفة العباسى قد رفض التحالف معه . ففكر الحسن فى استمالة بنى بويه إليه ، وكانوا أصحاب النفوذ الفعلى فى بلاد العراق ، فرفض هؤلاء أيضا أن يحالفوه ولم يقبل التحالف معه

سوى أمير الرحبة (١) من الحمدانيين وبعض القبائل العربية . (٢)

وقد سار الحسن القرمطى الملقب بالأعصم إلى الدكة (٣) حيث اشتبك هو وجند جعفر فاستهان به جعفر ، ولكن جنده لم تلبث أن تخاذلت عنه وانفضت من حوله ، فهزم ثم أسر وقتل هو وكثير من أتباعه (٦ ذى الحجة سنة ٣٦٠ هـ) . وقد عثر محمد بن عصودا على جثته خارج دمشق فقطع رأسه وصلبه على حائط داره ، انتقاماً لأخيه اسحق الذى قتله جعفر وصلبه . (٤)

بذلك انتهت حياة هذا القائد الذى نشر سلطان الفاطميين فى سورية وانتزعها من يد الإخشيديين وأذل زعماء الثورة التى قامت فى وجهه .

وقد عزا المقريزى (٥) ماحل بجعفر بن فلاح إلى ماارتكبه من الخطل وسوء التدبير والتباهى بنفسه ، حتى ترفع عن جوهر وعز عليه أن يكاتبه وكاتب المعز موقعاً فى جوهر ، مبيناً مابذله من الجهد فى فتح بلاد الشام وفلسطين . فلما وصلت كتب جعفر بن فلاح من الشام إلى المعز وهو ببلاد المغرب ، لم يفضها وأمر بردها إليه مع كتاب منه ينبهه إلى ماارتكبه من سوء التصرف ويأمره بمكاتبة جوهر باعتباره رئيسه المباشر ، وذلك على الرغم من مكانة جعفر فى نفس المعز . تلك المكانة التى لم تفده شيئا بجانب تمسك المعز بجوهر وثقته به لشدة إخلاصه وحسن بلائه . ولما علم جوهر بذلك غضب على جعفر . وكان لذلك أثر عظيم فيما صادف جعفراً من الصعاب فى فتوحاته ؛ إذ أنه أحجم عن مكاتبة جوهر وطلب الامداد منه خشية أن يتقاعد عن نصرته . وظلت الحال على ذلك حتى قدم الحسن بن أحمد القرمطى

---

(١) الرحبة بلدة واقعة على نهر الفرات

(٢) أبو الفداء : المختصر فى أخبار البشر ج ٢ ص ٣٢٥ ، ٣٥٠ ، ٥٠٩

(٣) الدكة بلدة واقعة على نهر يزيد على مقربة من دمشق

(٤) ابن خلكان : ج ١ ص ١٤١

(٥) خطط ج ١ ص ٣٧٨

وأوقع بجعفر وأرداه قيلا . وقد وجد على باب قصر جعفر بدمشق بعد موته هذان البيتان :

يامنزلا عبث الزمان بأهله فأبادهم بتفرق لايجمع
أين الذين عهدتهم بك مرة كان الزمان بهم يضر وينفع ؟

وهكذا استولى الحسن القرمطى على دمشق ، واحتفل بانتصاره فيها ، ولعن الخليفة الفاطمى المعز على منبر المسجد الأموى بدمشق . وقد علق الدكتور De Lacy O' Leary (١) على ذلك بقوله : « يعتقد القرامطة بنظرية الحق الإلهى للإمام الفاطمى ، ومن ثم يبدو هذا اللعن غريباً ، وقد يرجع هذا إلى أهل دمشق أنفسهم الذين كانوا سنيين غالين فى عدائهم للشيعة أو إلى القرامطة الذين لم يعودوا يحفلون بشرف الانتماء إلى آل على والذين لايكترثون بالاعتبارات الدينية أيا كانت » .

ب — أفتكين

كان أبو منصور أفتكين التركى الشرابى غلاماً لمعز الدوله أحمد بن بويه . ولم يزل يترقى حتى عظم شأنه فى بغداد وغلب على عز الدولة بختيار بن معز الدولة بن بويه . فلما سار الأتراك من بغداد لقتال الديلم اشتهر أفتكين بالشجاعة والاقدام . إلا أن أصحابه انفضوا من حوله وتركوه ، ولم يبق معه سوى طائفة قليلة العدد . فسار إلى الرحبة فى نحو أربعمائة رجل . فخشيه العرب ، وخرج إليه ظالم بن موهوب العقيلى من بعلبك ، بعد أن بعث إلى أبى محمود إبراهيم بن جعفر والى دمشق من قبل الخليفة المعز لدين الله الفاطمى يعلمه بأن أفتكين قد غادر بغداد وأنه فى طريقه إلى دمشق لاقامة الخطبة للخليفة العباسى . فأرسل إليه والى دمشق جيشا سار نحو حوشبة لمقاتلة أفتكين الذى أمده أبو المعالى بن حمدان بجيش كبير . فلما رأى ظالم أنه

---

(١) De Lacy O' leary : The Fatimid Khalifate P. 108

لا قِبَل له بمنازلته عاد إلى بعلبك ، وسار أفتكين إلى حمص ، فتلقاه أبو المعالى بالقبول وأكرم وفادته .

وقد ثار فى ذلك الحين بدمشق جماعة بزعامة ابن الماورد وحاربوا ولاة المعز واشتد خطرهم . فلما بلغهم خبر خروج أفتكين بعثوا إليه بحمص يدعونه ويعدونه باذكاء نار الثورة وأن يكونوا معه على جند المعز وعونا له على اخراجهم من دمشق ليصبح هو واليا عليها . (١) ولا غرو فقد كان أهل دمشق خاصة وأهل الشام عامة يكرهون المغاربه لمخالفتهم لهم فى المذهب الدينى من جهة ، وسوء سياسة الفاطميين فى بلادهم من جهة اخرى . ومن ثم سار أفتكين حتى وصل بثنية العقاب فى أواخر شعبان سنة ٣٦٤ هـ . (٢)

دخل أفتكين دمشق من غير حرب وأقام فيها أياماً ، ثم سار لقتال ظالم ابن موهوب العقيلى . ففر ظالم من وجهه ودخل أفتكين بعلبك . وكان الروم قد سبقوه إليها ، فانتهزوا فرصة دخوله بها ، فنهبوها وانتشروا فيها يحرقون ويسرقون ويقتلون (رمضان سنة ٣٦٤ هـ) . ثم قصدوا دمشق ، وكان أفتكين قد وصل إليها ، فقابلهم اهلها وطلبوا إليهم الرحيل فى مقابل مال يؤدونه اليهم ؛ ثم استقبلهم أفتكين وأخبرهم أنه لا يستطيع جباية الأموال لنفوذ ابن الماورد وأصحابه بها . فأمر امبراطور الروم بالقبض على ابن الماورد . واشتط أفتكين فى جباية الضرائب حتى جمع ثلاثين ألف دينار ، أخذها الأمبراطور وذهب إلى طرابلس . وبرحيله عن دمشق قوى نفوذ أفتكين فيها ودعا للطائع العباسى . (٣)

وفى ذلك الحين ظهر القرامطة على مسرح السياسة للمرة الثانية ضد الفاطميين الذين طالما تغنى القرامطة بأنهم من مذهبهم وبأنهم ينشرون الدعوة لهم .

---

(١) المقريزى : الخطط ج ٢ ص ٩

(٢) ابن القلانسى : ذيل تاريخ دمشق ص ١٦

(٣) المقريزى : الخطط ج ٢ ص ٩

فقداستدعاهم أفتكين من الأحساء لمعاونته على قتال الفاطميين . فقدموا دمشق فى سنة ٣٦٥ ه ، ومعهم كثير من أعوان أفتكين الذين شتت المعز شملهم ؛ فقوى بذلك نفوذهم ، واجتمعوا على اخراج الفاطميين من هذه البلاد .

ترك القرامطة وأفتكين دمشق إلى الرمله فنزلوا بها ، وهاجموا يافا . ثم واصل أفتكين سيره على ساحل البحر الأبيض المتوسط حتى وصل الى صيداء ، وكان بها ظالم بن موهوب العقيلى وابن الشيخ واليها من قبل المعز . فقاتلهم ابن الشيخ قتالا شديدا ، وقتل من الفريقين نحو أربعة آلاف رجل . وانتهى القتال بهزيمة ابن الشيخ وتراجع ظالم إلى صور . وقد انتقم أفتكين من جنود المعز فقطع أيدى القتلى وأرسلها إلى دمشق ، فطيف بها ، ثم سار إلى عكاء وبها حامية المعز .

وهكذا تفاقم خطر القرامطة وأفتكين فى الشام واستعصى أمرهما على الفاطميين ؛ ولم يتم القضاء عليهما إلا فى عهد العزيز الفاطمى على يد جوهر ، وهو ما سنفصله فى الباب الخامس .

الفصل الثانى

صد جوهر غارات القرامطة عن مصر

خشى جوهر ، بعد استيلائه على مصر ، خطر القرامطة لما كان يراه من تخريبهم وتدميرهم الولايات العباسية وغيرها من الأقاليم التى أغاروا عليها ، وكذا تعرضهم لقوافل الحجاج وسلبهم أموالهم . فقد ذكر المقريزى (١) أن السبب الذى حدا بجوهر إلى تأسيس القاهرة هو خوفه من غارات القرامطة على مصر وتوقعه هذه الغارات من حين لآخر . ومن ثم بنى سور القاهرة وضم بين جوانبه الخطط التى تكونت منها القاهرة المعزية ليكون هذا السور حصنا منيعا ضد هجمات القرامطة . وقد صدق حدس جوهر ، فقد هدد القرامطة مصر من ناحية الشرق بعد اشتباكهم مع الفاطميين فى الشام واستردادهم دمشق من جعفر بن فلاح وأسره وقتله .

سار الحسن بن أحمد زعيم القرامطة إلى الرملة ، (٢) حيث انضم إليه كثير من الإخشيديين بعد أن هرب واليها سعادة بن حيَّان الذى ولاه عليها جوهر فى شوال سنة ٣٦٠ هـ إلى يافا . ثم استأنف الحسن مسيره إلى مصر فوصل إليها هلال ربيع الأول سنة ٣٦١ هـ ، ودخل مدينة القُلْزُم (السويس) وأسر واليها عبد العزيز بن يوسف (٣) ونهب ما كان يملك من

(١) الخطط جـ ١ ص ٣٥٧

(٢) أبو المحاسن : جـ ٤ ص ٤٣٢

(٣) فى ديوان المتنبي أبيات كثيرة من الشعر عن عبد العزيز هذا . ولا غرو فان المتنبي هو الذى سهَّل له طريق الهروب من مصر وأضافه عنده .

الخيل والإبل . ثم هاجم الفرما ودخلها على حين غفلة من أهلها فى المحرم سنة ٣٦١ هـ . فكان بذلك صاحب النفوذ فى برزخ السويس ، واعترفت بسلطانه مدينة تنيس وخرجت على واليها . وقد وزعت المنشورات فى جامع عمرو لحض الناس على عصيان جوهر . ثم أمعن الحسن السير فى داخل البلاد وعسكر برجاله فى عين شمس (هليوبوليس) وهدد القاهرة . (١)

ولما سمع جوهر بوصول الحسن إلى برزخ السويس بدأ يستعد لقتاله . فحفر خندقا (٢) أقام عليه بابين من الحديد كانا على ميدان الاخشيد ، وبنى قنطرة على الخليج ووزع السلاح على المغاربة والمصريين . ثم بعث جوهر رجالا من عنده إلى معسكر القرامطة تظاهروا بالسخط على الفاطميين والرغبة فى التخلص من حكمهم ، ومازالوا يبذرون بذور الفتنة بين القرامطة حتى انتشرت الفوضى فى جيوشهم ودب الانقسام فى صفوفهم .

وقد بدأ القتال مع القرامطة فى أوائل ربيع الأول عند باب القاهرة ، وقامت بين الفريقين معركة أسر وقتل فيها عدد كبير من الجانبين . وظلت الحرب بينهما سجالا حتى حاول زعيم القرامطة وقائد جيوشهم الحسن بن أحمد الاستيلاء على الخندق عنوة ، وكان باب القاهرة حينئذ مغلقاً . فلما غربت الشمس أمر جوهر بفتح الباب . فابتدأ القتال ، واستعرت نار الحرب التى انتهت بهزيمة القرامطة وارتدادهم إلى القلزم . (٣)

وقد أظهر جوهر فى هذه الحروب شجاعة نادرة ومهارة فائقة . فقد حمل على القرامطة حملة صادقة فردهم على أعقابهم مدحورين مهزومين ، بعد أن

---

(١) G. wiet : Précis d'Histoire Musulmane de l'Egypte, P. 32

(٢) المقريزى : اتعاظ الحنفا ص ٩٣

(٣) أبو الفداء : جـ ٢ ص ١١٧ ، ١١٨ ، المقريزى : اتعاظ الحنفا ص ٨٦

كادت البلاد تقع فى أيديهم وتتعرض لكثير من الويلات والمحن . وليس أدل على مبلغ استياء جوهر منهم وحنقه عليهم من إعلانه فى البلاد عقب رحيلهم إلى القلزم مكافأة كل من أتى له بقرمطى أو برأسه بثلاثة آلاف دينار وخمسين خلعة وخمسين سرجا . (١) وقداستولى المصريون على ما تركه القرامطة من الأسلاب فى ميدان القتال .

ولا شك فى أن جوهراً مدين بالنصر لما قام به الجند المتطوعة من المصريين من الدفاع المجيد ، فقد رأوا بلادهم مهددة بالغزو ، وأموالهم معرضة للضياع ، وأرواحهم للهلاك . فصمدوا للقتال حتى ردوا القرامطة ، ثم انتقموا ممن مالأ العدو من الجندالإخشيدية ، فأسروا وقتلواعدداً كبيرا منهم . وفى ذلك يقول ابن القلانسى (٢) « ونادى جوهر فى الإخشيدية ، فاجتمعوا ، فعمل لهم طعاما وحلف لهم على المصافاة ، ثم قبضهم وقيدهم وحبسهم ، وكانوا ألفا وثلثمائة مقاتل» . (٣)

كان هؤلاء الجنود مصدر الشغب وإثارة الفتن والقلاقل فىالبلاد . فرأى جوهر ان الأحوال لا تستقيم بإطلاق الحرية لهم . وهذا يفسر لنا عدوله عن العهد الذىقطعه علىنفسه بمصافاتهم ، ولم ير بداً منمنع أذاهم باقصائهم عنالجمهور . وهذهالسياسة تشبه فىبعضالوجوه سياسة محمد على مع المماليك الذين كانوا مصدر شر مستطير فى مصر والذين وقفوا موقف العدو الثائر الذى لا تنفع معه الحيلة ولا يصلحه اللين . ومن ثم دبّر لهم مذبحة القلعة وقضى عليهم .

ولما سمع المعزوهوببلادالمغرب خبر غزوالقرامطة مصر أرسل جيشا من

---

(١) المقريزى : اتعاظ الحنفا ص ٨٦

(٢) ذيل تاريخ دمشق ص ٢

(٣) وقد أطلق المعز سراحهمحينقدم مصر سنة ٣٦٢ هـ (المقريزى : اتعاظ الحنفا ص ٩١)

القيروان تحت قيادة أبي محمد الحسين بن عمار . فزادت قوة جوهر الحربية ، وعزم على إخضاع مدينة تنيس والانتقام من سكانها الذين والوا القرامطة وانضموا إليهم . فسار إليها وأخضع أهلها ولكنه عفا عنهم . ثم رجع أسطول القرامطة من النيل بعد أن خسر سبع سفن حربية وخمسمائة أسير ، وعاد الحسن إلى دمشق ليتأهب للقتال من جديد . (١)

ولما وصل المعز الى مصر سنة ٣٦٢ هـ رأى أن ملكه لا يزال معرضا لخطر القرامطة . فانهم مافتئوا يهددون مصر ، ويتابعون الإغارة عليها لانتزاعها من الفاطميين . فأرسل المعز إلى الحسين بن أحمد القرمطي كتابا (٢) عنوانه :

«من عبدالله ووليه وخيرته وصفيه مَعدأبي تميم المعز لدين اللهأمير المؤمنين وسلالة خير النبيين ونجل على أفضل الوصيين إلى الحسن بن أحمد » .

وقد بدأ المعز هذا الكتاب « بسم اللهالرحمن الرحيم » ، وذكّر الحسن فيه بسنة الأوائل الابتدا بالاعذار والانتها بالانذار » ، كما ذكّره ان جديه أبا سعيد وأبا الطاهر كانا يدينان بنفوذهما للفاطميين ويعتنقان مذهبهم . ثم ندد بسياسة الحسن وأظهر حنقه عليه واستياءه منه فى تلك العبارة : «أما أنت أيها الغادر الخائن الناكث الباين على هدى آبائه وأجداده . المنسلخ من دين أسلافه وأنداده ، والموقد لنار الفتنة ، والخارج عن الجماعة والسنة ، فلم أغفل أمرك ، ولاخفى عنى خبرك . ولا استتر دونى أثرك . وإنك منى لبمنظر» . وفى نهاية الكتاب عرض عليه المعز ثلاث خصال ليختار لنفسه منها واحدة : إما أن يرد جميع ما استحوذ عليه من الأسلاب فى حروبه مع جعفر وجنده بدمشق وسعادة بن حيان ورجاله بالرملة ، وإما أن يردهم احياء ، وهو ما

---

(١) De Lacy O'leary : The Fatimid Khalifate P. 109.

(٢) المقريزى : اتعاظ الحنفا ص ١٣٣ ـ ١٤٣

لا قِبَل له به ، وإما أن يسير هو وأتباعه إلى المعز فيحكم عليهم بالقصاص أو الفدية .

وقد رد الحسن على ذلك الكتاب الطويل الذى بعث به الخليفة الفاطمى اليه بتلك الكلمات : لقد تسلمت كتابك المملوء بالألفاظ ، الخالى من المعانى ، وسيأتيك جوابى .

ويظهر لنا ان الحسن القرمطى كان ينوى إعادة الكرة والإغارة على مصر من جديد . ولم يصرفه عن ذلك تلك الهزيمة التى حلت به على يد جوهر ، بل ولم يُرهبه ما أظهره المعز فى كتابه اليه من التباهى بقوته والاستخفاف بجند عدوه . يتضح لنا صحة هذا القول من هذين البيتين اللذين نظمهما الحسن بعد هزيمته :

زعمت رجال الغُرْب انى هبتها   فدمى اذا ما بينهم مطلولُ

يامصر إن لم أسق أرضك من دم   يروى ثراك فلا سقانى النيلُ . (١)

وقد ظهر القرامطة فى شهر ربيع الثانى سنة ٣٦٣ هـ للمرة الثانية فى عين شمس وعاونهم أنصار الإخشيدية الذين انتشروا فى جميع أنحاء مصر . فبعث المعز ابنه عبدالله إلى الوجه البحرى على رأس جيش عظيم من أربعة آلاف مقاتل ، هزموا القرامطة فى عدة وقائع . غير أن هذه الهزائم المتكررة لم تفت من عضد القرامطة . فقد اجتمعت أمام الخندق الذى حفره جوهر وأعدوا المعدات لاجتيازه .(٢)

وقد استطاع الخليفة الفاطمى بواسطة جواسيسه أن يفسد قبيلة بنى طى من العرب ، فرشا زعيمها حسّان بن جراح الطائى . وكانت هذه القبيلة

---

(١) ابن القلانسى : ذيل تاريخ دمشق ص ٢

(٢) Stanley Lane - Poole : A History of Egypt in the Middle Ages P. 113

أقوى العناصر فى جيش الحسن القرمطى . وبذلك نجحت سياسته فى فصل هذه القوة الكبيرة عن القرامطة . وقد خصص المعز لذلك مائة ألف دينار . ولما لم يكن فى بيت المال من الدنانير ما يكفى لتحقيق هذه الفكرة ، أمر المعز بضرب نقود زائفة من الرصاص ، مغطاة بطبقة رقيقة من الذهب ، وضعت فى أكياس ووضع فى أعلاها قليل من الدنانير المضروبة من الذهب الخالص . فلما استعرت نار الحرب بين الفريقين انصرف بنو طى ، وولى ابن الجراح منهزماً ، وتشتت شمل القوة التى بقيت مع الحسن القرمطى ، فنهب معسكره وقتل من أتباعه نحو ألف وخمسمائة وذلك فى رمضان سنة ٣٦٣ هـ . ومن ذلك الوقت بدأت قوة القرامطة فى الضعف لوقوع النزاع بينهم ، فارتدوا عن مصر الى غير رجعة . (١)

---

(١) De Lacy O'leary : The Fatimid Khalifate P. 110

الفصل الثالث

الدعوة الفاطمية فى مصر

١ — قبل الفتح

كانت القيروان أو المهدية لا تصلح حاضرة الدولة الفاطمية ، لبعدها عن الولايات الاسلامية التى كان الفاطميون يتطلعون إلى الاستيلاء عليها ، كالشام وفلسطين . ولما كانت مصر واسطة العقد بين الأمم الاسلامية ، فضلا عما اشتهرت به من الخصب ونماء الثروة ، فكر المهدى الفاطمى فى غزوها وجعلها حاضرة للدولة الفاطمية بعد أن وطَّد سلطانه فى بلاد المغرب . ولا غرو فإن فكرة غزو هذه البلاد قديمة توارثها الخلفاء الفاطميون بعضهم عن بعض . فان امتلاك مصر معناه نشر عقائد المذهب الفاطمى فى ثلاثة من الحواضر الاسلامية الكبيرة : وهى المدينة والفسطاط ودمشق ، فقد كان كل من الشام والحجاز تحت سلطان مصر فى ذلك الحين .

غزت جيوش المهدى الفاطمى هذه البلاد ثلاث مرات : أما الأولى ففى سنة ٣٠١ هـ ، والثانية ابتدأت سنة ٣٠٧ هـ ولم تنته إلا سنة ٣٠٩ هـ ، فى حين ابتدأت الغزوة الثالثة سنة ٣٢١ هـ واستمرت حتى عهد القائم بن المهدى سنة ٣٢٤ هـ .

وهذه الغزوات ، وان كانت قد فشلت من الوجهة الحربية ، إلا أنها قد مهدت السبيل لنشر الدعوة الشيعية فى مصر . فقد أصبح فيها عدد كبير يعطف على تلك الدعوة ، وكاتبوا الفاطميين وطلبوا اليهم غزو مصر ووعدوهم العون

على فتحها . يدل على ذلك الخطبة التى ألقاها المعز على رؤساء كنامة قبيل رحيل جوهر إلى مصر . فقد جاء فيها « وانى مشغول بكتب ترد علىّ من المشرق والمغرب أجيب عليها بخطى » . (١) وما ذكره أبو المحاسن (٢) من أن الشيعيين فى مصر أرسلوا إلى المعز كتباً جاء فيها « اذا زال الحجر الأسود (٣) فقد ملك مولانا المعز الدنيا كلها » . (٤) وكان لهذه المكاتبات التى دارت بين المصريين والمعز أثر عظيم فى تسهيل فتح مصر على يد جوهر . ثم هذه الأبيات التى نظمها ابن مِهْران ممن شهد هذه الحوادث من الشعراء ، نقلها عن الكندى : (٥)

وقد حشدوا لمصر ودونَ مصرٍ (لَهُ) خَرْطُ القناد وأى خرط
وأقبل جاهلاً حتى تخطى وجاز بجهله حد التخطى
بكتْب جماعة قد كاتبوه من أقباط بمصر وغير قبطى
وكل كاتبوه ونافقونا وكل فى البلاد لهُ مُوَطى

ويظهر أن الدعوة للفاطميين فى مصر قد انتشرت وجذبت اليها كثيرين من الأنصار ، حتى إن ذكا الرومى والى مصر (٣٠٣ - ٣٠٧ هـ) قد خشى استفحال أمر هذه الدعوة ، وأخذ فى اضطهاد القائمين بها ، فسجن كثيرين منهم ونكل بهم .

ولاشك أن الدعوة للبيت العلوى قد صادفت نجاحا عظيما فى مصر ، فقد أصبح فيها عدد غير قليل يعتنق المذهب الشيعى ويعمل على نشره . ويرجع ذلك إلى ما كان من إدماج الفاطميين فى صفوف جندهم ، الذين

---

(١) المقريزى : اتعاظ الحنفا ص ٦٠ — ٦٦
(٢) جـ ٢ ص ٤٤٣
(٣) يقصدون كافورا الذى كان يتولى حكم مصر اذ ذاك
(٤) المقريزى : اتعاظ الحنفا ص ٦٦
(٥) كتاب الولاة وكتاب القضاة ص ٢٧٢

أوفدوهم لفتح مصر ، دعاة يعهدون اليهم الاختلاط بالناس وتعليمهم عقائد المذهب الفاطمى . أضف إلى ذلك ماقام به الخلفاء الفاطميون من تشجيع هذه الدعوة ، بإرسال الكتب بخطهم مذيلة بامضاءاتهم لهذه البلاد يدعون الناس فيها لاعتناق العقائد الفاطمية . فقد كتب الخليفة الفاطمى القائم (٣٢٢ – ٣٣٤ هـ ، ٩٣٤ – ٩٤٥ م) كتابا بيده إلى محمد الأخشيد والى مصر يدعوه فيه إلى إقامة الخطبة للخليفة الفاطمى وإزالة اسم الخليفة العباسى منها (١) . غير أن هذا الكتاب لم يكن له أثر يذكر فى نفس الأخشيد ، فأهمل رسول الخليفة القائم ولم يجب على هذا الكتاب بشيء .

على أن إرسال الخليفة العباسى محمد بن رائق الخزرى إلى الشام لأخذ مصر وطرد الإخشيد منها قد أحفظ الاخشيد وأثار حنقه . فتبدلت صلة الصداقة التى كانت تربطه بالخليفة العباسى إلى عداء مستحكم . فأمر الاخشيد بإيقاف الخطبة للخليفة العباسى وإقامتها للخليفة الفاطمى .

وقد روى ابن سعيد(١) نقلا عن عمر بن الحسن الخطيب العباسى فى مصر أن الإخشيد قطع الخطبة للخليفة العباسى وأمر بذكر الخليفة الفاطمى محله . وذكر أن السبب فى ذلك هو مااتصل بالإخشيد عن مسير ابن رائق لتسلم مصر منه بأمر الخليفة العباسى ، مما أثر فى نفس الإخشيد ، فأمر الخطيب بالدعوة للقائم الفاطمى .

وسواء صحت هذه الرواية أو تلك ، فقد كان ذلك خطوة كبيرة للاعتراف بسلطان الفاطميين الذين زاد عدد أتباعهم فى هذه البلاد .

على أن الخطيب العباسى لم يبين لنا إذا كانت الخطبة قد أقيمت فعلا للخليفة الفاطمى . فان المؤرخين لم يكشفوا لنا عما اذا كان اسم الخليفه العباسى قد حذف من الخطبة بالفعل ، اذ لو قطعت الخطبه للخليفه العباسى لما ضن المؤرخون بموافاتنا بهذا الخبر لاهميته وخطورته . فان ذكر اسم الخليفه فى

(١) المغرب فى حلى المغرب ص ٢٥ – ٢٦

الخطبة ونقشه على السكة من أهم مظاهر الخلافة فى الولايات الاسلاميه .

إلا أن ضعف الخلافة العباسية فى ذلك الوقت ، وذلك العداء المستحكم بين الخليفة العباسى والأخشيد ، وقيام علاقات المودة بين الاخشيد والفاطميين ، وظهور فريق من المتشيعين فى مصر يعمل على نشر المذهب الفاطمى — كل ذلك يجعلنا نميـل إلى القول بأن الأخشيد قد قطع الخطبة للخليفة العباسى المطيع ولو الى حين .

وقد ظلت علاقات المودة قائمة بين مصر وبلاد المغرب ، حتى أن الأخشيد عرض على القائم أن يزوج ابنه المنصور من ابنة الأخشـيد . فوافق القائم على ذلك وبعث بموافقته الى الأخشيد . فأرسل هـذا اليه صداقاً قدره مائة ألف دينار . فاستقل القائم هـذا المبلغ ، ومن ثم توترت العلاقات بين الأخشديين والفاطميين .

هذا مارواه لنا ابن سعيد ونحن نشك فيه كل الشوك . اذ كيف يعقل أن يعرض الأخشيد ، وهو أحد ولاة الخليفة العباسى ، أن يزوج ابنته من ولى عهد الخليفة الفاطمى الذى كان يضمر له العباسيون الـكراهيه والبغضاء . ولعل الخليفه العباسى قد سير ابن رائق لتسلم زمام مصر من الأخشيد حين اتصل بعلمه نبأ هذا الزواج ، فعدل الأخشيد عن المضى فى هذا السبيل . ومات هو والخليفة الفاطمى بعد فليل ، واشتغل ابنه المنصور بالقضاء على ثورة أبى يزيد ومن ثم فشل مشروع الزواج وانقطعت العلاقات الودية بين مصر وبلاد المغرب .

ولم يحـاول الفاطميون غزو مصر فى البقية الباقية من خلافـة القائم (٣٢٢ - ٣٣٤ ﻫ) وطوال عهـد المنصور (٣٣٤ - ٣٤١ ﻫ) . لأن قيام الثورات التى أذكى نيرانها الخوارج — ولا سيما ثورة أبى يزيد — قـد استنفدت جهود هذين الخليفتين كما استنفدت كل موارد البلاد المالية .

وظلت الحال كذلك إلى أن جاء الخليفة المعز رابع الخلفاء الفاطميين .

فحاول إعادة الكرة لغزو مصر . وقد سارت جيوشه اليها فى عهد كافور الأخشيدى ، ووصلت الى حدود هذه البلاد الغربية ، حيث حالت الجيوش المصرية دون تقدمها داخل البلاد ، على الرغم من استقباله فى بلاطه دعاة الفاطميين الذين أرسلهم المعز لدعوته هو ورجال بلاطه وموظفى دولته للدخول فى طاعة الخليفة الفاطمى . وقد أخذت البيعة للمعز من معظم رجال الأخشيدية والكافورية وسائر الأولياء والكتاب . (١)

ومما يدل على اهتمام كافور بشئون الأشراف فى مصر هذه الحكاية التى نروبها عن ابن سعيد (٢) الذى يقول أن كافور كان راكبا فى موكبه يوما فسقط سوطه فناوله إياه أحد الاشراف (٣). فقبّل كافور يده وقال له «نعيت إلىّ نفسى فما بعد أن ناولنى ولد رسول الله صلى الله عليه وسلم سوطى غاية يتشرف لها » .

ومما أثر عن كافور أن امرأة اعترضته فى طريقه وصاحت به « ارحمنى يرحمك الله ! » فدفعها أحد رجاله دفعا عنيفا ، فسقطت . فغضب كافور غضبا شديدا ، وأمر بقطع يد هذا الرجل ، فشفعت له المرأة . فأمر كافور أحد رجاله أن يسألها عن أهلها ونسبها ، فاتضح أنها علويه . فأسف كافور على ما حدث ثم أغدق الهبات والأرزاق عليها وعلى غيرها من نساء الأشراف . (٤)

ب — بعد الفتح

لما تم للفاطميين فتح مصر سنة ٣٥٨ هـ (سنة ٩٦٩ م) أخذ جوهر فى

---

(١) المقريزى : الخطط جـ ٢ ص ٢٧

(٢) ص ٤٧

(٣) ذكر السيوطى فى كتابه « حسن المحاضرة فى أخبار مصر والقاهرة » أن هذا الشريف هو أبو جعفر مسلم العلوى (جـ ٢ ص ١١)

(٤) ابن سعيد ص ٤٨

بث الدعوة للخليفة المعز الفاطمى خاصة ولأهل بيته من العلويين عامة . على أنه لم يوفق فى تنفيذ هذه السياسة توفيقا تاما . فقد كان السواد الأعظم من المصريين يعتنق المذهب السنى ، فى حين كان الشيعيون أقلية صغيرة بالنسبة الى أهل البلاد .

وبعد أن فرغ جوهر من وضع أساس مدينة القاهرة أمر بالغاء الخطبة للعباسيين وإقامتها للمعز الفاطمى ، كما أمر بأن تضرب السكة باسم الخليفة الفاطمى ، ومنع لبس السواد شعار العباسيين ، وقرر لبس الملابس البيضاء وحرّم على الناس قراءة التسبيح « سبّح باسم ربك ! » فى صلاة الجمعة ونهى عن التكبير بعد الصلاة وكان من العادات المألوفة عند السنيين . (١)

وكانت الدعوة للمذهب الفاطمى تقام فى مصر فى عهد جوهر فى المساجد وبخاصة فى جامع عمرو وجامع ابن طولون والجامع الأزهر الذى بناه جوهر عقب الفتح ، كما كانت الدعوة لهذا المذهب تذاع على يد داعى الدعاة ومن كان يعاونه من الدعاة .

لم يكن الغرض من بناء المساجد فى مصر مقصورا على الأغراض الدينية وحدها ، فقد كان بناؤها لأسباب سياسية واجتماعية أيضا . ومن ثم أصبحت المساجد مركزا للثقافة الاسلامية ، ومثابة لاجتماع العلماء والفقهاء ، ومكانا لاذاعة الأخبار الهامة . ولما كان الغرض الاول الذى كانت ترمى اليه سياسة الفاطميين فى مصر هو جذب الناس اليهم وادخالهم فى حظيرة مذهبهم ، فانهم لم يألوا جهدا فى بث تعاليم هذا المذهب فى نفوس المصريين واتخاذهم ذلك وسيلة للوصول الى أغراضهم السياسية .

وكان فى مصر عند مافتحها الفاطميون مسجدان هما جامع عمرو فى مدينة الفسطاط مركز الحركة التجارية وموطن الأهلين ، وجامع ابن طولون فى القطائع . وسرعان مابنى جوهر الجامع الأزهر فى القاهرة حاضرة

---

(١) المقريزى : اتعاظ الحنفا ص ٧٨



جامع عمرو بن العاص – منظر عام للأيوان الشرقي

الفاطميين الجديدة . لذلك نرى أن نتكلم عن بث الدعوة الفاطمية فى كل من هذه المساجد الثلاثة لنرى الى حد نجح الفاطميون فى هذا السبيل .

خطب للمعز فى جامع عمرو فى التاسع عشر من شعبان سنة ٣٥٨ ﻫ (سنة ٩٩٦ م) بعد استيلاء جوهر على الفسطاط بأيام قليلة (١) . وكان ذكر المعز فى خطبة الجمعة بدل اسم الخليفة العباسى حادثا هاما فى تاريخ مصر . (٢) فقد شاد الخطيب فى خطبته بفضائل العلويين — الأئمة الصالحين — الذين انتهك الخارجون من السنيين حقهم (٣) . وبدأ النزاع الدينى بين الشيعيين والسنيين بصورة أشد عداء مما كانت عليه فى الأزمان السالفة . فأخذ كل حزب فى لعن الآخر والحط من قيمته . وفى يوم الجمعة الثامن عشر من ذى القعدة سنة ٣٥٨ ﻫ دعا الخطيب لآل البيت ، وزاد فى الخطبة العبارة الآتية : «اللهم صل على محمد المصطفى ، وعلى علىّ المرتضى ، وعلى فاطمة البتول ، وعلى الحسن والحسين سِبطى الرسول الذين أذهبت عنهم الرجس وطهرتهم تطهيراً ، اللهم صل على الأئمة الراشدين آباء أمير المؤمنين الهادين المهديين » (٤) . وفى رمضان سنة ٣٥٩ ﻫ أمر جوهر بأن تنقش جدران جامع عمرو باللون الأخضر شعار العلويين .

وقد تطورت الدعوة الشيعية فى جامع ابن طولون فى ولاية القائد جوهر فى شهر ربيع الثانى سنة ٣٥٦ ﻫ . فقد كان الأذان بمصر كأذان أهل المدينة وهو « الله أكبر الله أكبر » . وظل الحال على ذلك حتى قدم جوهر

---

(١) ابن خلكان : ج ١ ص ١٤٩

(٢) الدكتور حسن إبراهيم حسن . الفاطميون فى مصر ص ١٢٠

(٣) من خطبة هبة الله بن أحمد التى ألقاها فى الجامع العتيق فى ٢٠ شعبان سنة ٣٥٨ ﻫ (المقريزى : اتعاظ الحنفا ص ٧٥ — ٧٦)

(٤) المقريزى : اتعاظ الحنفا ص ٧٧ ، وأبو المحاسن ج ٢ ص ٤٠٨ ، ابن خلكان ج ١ ص ١٢٠

مصر . فلما كان يوم الجمعة ٨ جمادى الأولى سنة ٣٥٩ صلى جوهر فى جامع ابن طولون وخطب عبد السميع بن عمر الخطيب العباسى وأذن المؤذنون « حى على خير العمل ! » ، وهى من العبارات المألوفة عند الشيعيين

وقد انتقلت هذه العبارة من جامع ابن طولون الى جامع العسكر ، ومنه الى جامع عمرو . (١) ويحدثنا المقريزى أنه حضر الصلاة فى جامع ابن طولون فى هذا اليوم عدد غير قليل ، وأن عبد السميع الخطيب العباسى قد شاد فى خطبته بذكر أهل البيت وعدّد مآثرهم ، كما أنه دعا للقائد جوهر الذى لم يقر الخطيب على ذكر اسمه فى الصلاة بحجة أن مولاه المعز لم يأمر بشىء من ذلك (٢) .

أما الجامع الأزهر فقد جعله الفاطميون مركزاً لبث عقائد مذهبهم واجتماع أشياعهم . وقد أقيمت الصلاة فيه لأول مرة فى ٧ رمضان سنة ٣٦١ ﻫ . ولم يزد جوهر شيئاً جديداً فى الأذان والخطبة فى هذا الجامع على ما أدخله عليهما فى جامعى عمرو وابن طولون . واستمرت الحال كذلك حتى جاء المعز ، فتطورت الدعوة الفاطمية فى الأزهر تطوراً عظيما . فقد أمر الخليفة الفاطمى بأن تنقش العبارة الآتية على جدران مصر القديمة وهى « خير الناس بعد رسول الله صلى الله عليه وسلم أمير المؤمنين على بن أبى طالب » (٣) . وفى المحرم سنة ٣٦٣ ﻫ (سنة ٩٧٣ م) أقام الخليفة المعز صلاة الجمعة فى مصلى القاهرة التى أنشأها جوهر فى رمضان سنة ٣٥٨ ﻫ خارج باب النصر . وأدخلت على الدعوة الشيعية مظاهر جديدة فى الجامع الأزهر . فقد كان السنيون يكبرون على الميت أربعا فقط . فأمر المعز بالتكبير على الميت على حسب مكانته مقتفياً فى ذلك أثر على بن أبى طالب .

---

(١) المقريزى : الخطط ج ٢ ص ٢٧

(٢) ابن خلكان ج ١ ص ١٢٠

(٣) المقريزى : اتعاظ الحنفا ص ٩٠

ولما مات أحد بنى عم المعز صلى عليه هذا الخليفة فى الجامع الأزهر وكبر عليه سبعاً وكبر على ميت آخر خمساً (١) .

ولما وصل المعز الى مصر وصرف جوهر عن ولايتها قام المعز بنفسه بنشر هذه الدعوة ، ثم تولاها الخلفاء الفاطميون من بعده . وقد استعان الفاطميون فى نشر مذهبهم بالدعاة الذين كانوا يدبجونهم فى جيوشهم لبث الدعاية باسمهم . وكانت الدعوة للمذهب الفاطمى ، بعد الفتح ، تذاع على يد داعى الدعاة ، وكان من كبار الموظفين . وقد خصص له المعز مكاناً فى قصره . ولا يفوتنا أن من أهم أغراض السياسة التى انتهجها جوهر فى مصر لنشر الدعوة الفاطمية باسم مولاه المعز . ولسنا نشك فى أن جوهراً قد استعان بطائفة من الدعاة وأنه قد عين لهم رئيساً هو داعى الدعاة ، كان مركزه الجامع الأزهر . ولا غرو فان الفاطميين لم يهتموا اهتماما كبيراً ببث دعوتهم فى المساجد الأخرى كجامع عمرو وجامع ابن طولون التى يؤمهما السنيون. ولما بنى جوهر القصر لمولاه المعز اتخذ به المعز ليكون مقراً لداعى الداعاة .

وكان يساعد داعى الدعاة فى بث التعاليم الفاطمية اثنا عشر نقيباً ، كما كان له نواب ينوبون عنه فى سائر البلاد المصرية ، ويحضر إليه فقهاء الدولة يتلقون منه الأوامر . ويقدمون إليه فى يومى الاثنين والخميس محاضراتهم عن أصول المذهب الشيعى . فيعرضها الداعى بنفسه قبل إلقائها على الخليفة فيقر مايقبله منها ويذيله بامضائه ، ثم يردها الداعى إليهم .

وكان داعى الدعاة يعقد المجالس فى مكانين كبيرين من قصر الخليفة . فكان يجلس على كرسى الدعوة فى الديوان الكبير ، ويبدأ بمحاضرة الرجال ، ثم يعقد للنساء مجلسا خاصا يعرف بمجلس الداعى . وفى هذين المكانين كان يحاضر الناس ويلقنهم عقائد المذهب الشيعى . فاذا مافرغ داعى الدعاة من إلقاء محاضرته على الحاضرين ساروا اليه لتقبيل يده ، فيمسح على

---

(١) المقريزى : الخطط ج ٢ ص ٣٥٣

رءوسهم بالجزء الذى عليه إمضاء الخليفة . وكان داعى الدعاة يجمع النجوى (١) من الاسماعيلية أثناء انعقاد هذه المجالس . وكان كل من يدفع من سراة الاسماعيلية ثلاثة وثلاثين دينارا وثلثى دينار يعطى رقعة مذيلة بامضاء الخليفة فيها « بارك الله فيك وفى مالك وولدك ودينك ! » . فيدخرها ويفخر بها

وكان داعى الدعاة يواظب على الجلوس فى القصر لإلقاء محاضراته . وكان يفرد لآل علىّ مجلسا ، وللخاصة وشيوخ الدولة مجلسا ، وللعامة والنازحين إلى مصر من البلدان الأجنبية مجلسا ، وللحرم وخواص نساء القصور مجلسا ، كما كان النساء يحضرن فى الجامع الازهر (٢) .

وكان فى قصر الخليفة مجموعة عظيمة من الكتب ، الغرض منها نشر عقائد الفاطميين وتلقينها للناس . ولاغرو فقد عنى الفاطميون عناية خاصه بازدياد عدد الكتب فى المذهب الشيعى ، حتى كانت مكتبة القصر فى القاهرة تنافس غيرها من المكاتب فى العالم الاسلامى (٣) .

ولم تقتصر أعمال الفاطميين فى نشر دعوتهم على الاشادة بمحامد آل البيت ، بل عملوا أيضا على الحط من شأن الخلفاء الراشدين الثلاثه ، وهم أبو بكر وعمر وعثمان ، ثم من شأن الخلفاء من بنى أمية وبنى العباس والصحابة الذين لم ينصروا عليا ولم يقولوا بأحقيته فى الخلافه بعد الرسول عليه الصلاة والسلام . بل اعتبروا هؤلاء خارجين على الدين والدولة . ومن ثم نرى فضائل علىّ وأولاده من بعده تنقش على السكة وعلى جدران المساجد فى مصر وفى البلاد التى كانت تحت سلطانها . كما نرى الخطباء فى عهد الفاطميين يلعنون الصحابة على كافة المنابر حتى لقد ألزم جميع الموظفين المصريين أن يعتنقوا المذهب الفاطمى ، كما حتم على القضاة أن يصدروا أحكامهم وفق قوانين هذا المذهب . وليس بعيدا أن تكون الرغبة فى الحصول على مناصب الدولة هى التى دفعت بفريق من السنيين الى التحول الى المذهب الشيعى .

---

(١) النجوى الصدقة وهى عبارة عن ثلاثة دراهم وثلث

(٢) المقريزى : الخطط ج ١ ص ٣٩١

(٣) ابن خلدون : ج ٢ ص ١٤٦

الفصل الرابع

النظام الادارى فى مصر فى ولاية جوهر

كان من سياسة جوهر أن يحل المغاربة الشيعيين محل المصريين السنيين فى المناصب الهامة · ولا غرو فقد رأى أنه من الطبيعى أن تؤول أكثر مناصب الدولة الى أنصاره من المغاربة الذين قامت على أكتافهم الدولة الفاطمية ، وكما حدث ذلك فى الدولة العباسية . فقد كانت المناصب الهامة فى الدولة تسند إلى الخراسانيين لما بذلوه من المساعدة فى إقامة دولتهم · وقد بدأ جوهر فى تنفيذ سياسته بأن عمل على محو كل أثر من آثار المذهب السنى سواء كان ذلك من الوجهة الدينية أو المدنية ، ناظرا إلى معتنق هذا المذهب نظرة الخارجين على الدين ·

وكان جوهر ينوب عن الخليفة المعز فى إدارة شؤون هذه البلاد . وكان فى سياسته شىء كثير من الحكمة وبعد النظر . فقد أفسح المجال أمام المغاربة ، لكى يستطيعوا الالمام بالنظم الإدارية التى كانت تسير عليها الحكومة المصرية فى عهد الأخشيديين . ويوضح لنا المقريزى هذه السياسة بقوله « ان جوهرا لم يدع عملا إلا جعل فيه مغربيا شريكا لمن فيه[1] » .

وقد رأى جوهر ان ينفذ سياسته تدريجيا ، حتى لا يثير شعور السنيين الذين كانت اليهم إدارة أمور الدولة ، فتتعطل الأعمال الإدارية ويضطرب حبل الأمن والنظام فى البلاد . وقد نجح جوهر فى سياسته ، نجاحا كان من أثره أن أصبحت أمور الدولة على اختلافها فى أيدى الشيعيين فى سنة

---

(١) المقريزى : اتعاظ الحنفا ص ٧٨

٣٧٩ هـ أى بعد الفتح بنحو عشرين سنة . ولم يبق فى أيدى السنيين إلا القليل من مناصب الدولة مما ليس له أهميـة أو خطر . وقد حتم جوهر على جميع موظفى الدولة أن يسيروا وفق أحكام المذهب الشيعى ، مذهب الدولة الحاكمة وكان الفاطميون يعاقبون بالعزل كل من يعرف بالهوادة فى تنفيذ هـذه الأحكام . وبذلك انتشر المـذهب الشيعى فى مصر بين الموظفـين السنيين خشية الاضطهاد أو رغبة فى الوصول إلى المناصب العالية فى الدولة ، وحذا حذوهم فى ذلك غير المسلمين من النصارى واليهود .

وفى أوائل سنة ٣٦٣ هـ تغيرت إدارة المناصب فى مصر تغيرا عظيما . فقد كانت دار الشرطه — بعد أن فتح العرب مصر — فى مدينة الفسطاط. فلما تأسست مدينة العسكر بنيت فيها دار أخرى للشرطة أطلق عليها دار الشرطة العليا ، كما أطلق على الأولى دار الشرطة السفلى . فلما استولى الفاطميون على مصر جعلوا مقر الشرطة العليا فى القاهرة . (١) وقد ذكر ابن دقماق (٢) ان صاحب الشرطة قـد توفى فى نفس اليوم الذى وصل فيـه جوهر مصر . فأسندت إلى جبر ، وبقيت دار الشرطة السفلى فى الفسطاط وتقلدها عروبة ابن ابراهيم وشبل المعرضى (٣) . وقد صرف المعز بنى عبد السميع عن الخطابة بعد أن تقلدوها أربعاً وستين سنة ، وأسندها الى جعفر بن الحسن ابن الحسينى فى جامع عمرو ، كما أسندت إلى أخيه فى الجامع الأزهر فى سنة ٣٧٩ هـ (٤). وتقلد بيت المال محمد بن الحسين بن مهذب ، وهؤلاء كلهم من المغاربة الشيعيين .

---

(١) ابن ميسر ص ٤٥

(٢) ج ٤ ص ١١

(٤) المقريزى : اتعاظ الحنفا ص ٩٥

(٥) الخطط : ج ٢ ص ٩٩

وكانت أهم الأعمال الادارية التى تقلدها الشيعيون هى جباية الخراج ، والوزارة ، والقضاء ، والحسبة .

ا — الخراج

كان أول مااهتم به جوهر عقب الفتح هو العمل على تخفيف وطأة القحط والمجاعة التى انتابت البلاد . فقد أنشأ مخزناً عاماً للحبوب عهد برقابته الى المحتسب . وكانت مهمته منع احتكار الحبوب .

كان يتولى جباية الخراج فى مصر حين فتحها جوهر ، علىّ بن يحيى بن العرمرم . فأقره جوهر فى منصبه . ولم يكد يمضى شهر على ذلك حتى أشرك معه رجاء بن صولاب . ويغلب على الظن أن ابن صولاب هذا كان مغربيا ، وذلك تبعا للسياسة التى سار عليها جوهر من إسناد المناصب العالية للمتشيعين من المغاربة وإحلالهم محل الموظفين السنيين . إلا أن موظفى الخراج لم يلبثوا ان أصبحوا تحت إشراف يعقوب بن كلس وعسلوج بن الحسن ، فصرفا ابن العرمرم وابن صولاب عن مناصبهما وجعلا جباية الخراج قسمين : أحدهما فى يد على بن محمد بن طباطبا وعبد الله بن عطاء الله ، وثانيهما فى يد الحسن بن عبد الله والحسين بن أحمد الروذبارى .

وقد ذكر المقريزى (١) ان جوهرا جبى خراج مصر فى السنة الأولى من ولايته ٣٤٠٠٠٠٠ دينار . وكان هذا المقدار قد نقص كثيرا فى أواخر أيام كافور حين انتاب مصر القحط وعمها الوباء على أثر انخفاض النيل مدة تسع سنوات (٣٥١ — ٣٦٠ ﻫ) . ولم تنته المجاعة إلا بعد شهر اكتوبر سنة ٣٦٠ ﻫ (سنة ٩٦٩ م) أى فى أوائل دخول الشتاء . ومن ثم بدأت البلاد تسترد نشاطها

وقد عهد المعز الى يعقوب بن كلس وعسلوج بن الحسن بوضع نظام جديد للضرائب بدل النظام القديم ، فجمعت أقسامه المختلفة فى مكان واحد .

---

(١) : الخطط ﺟ ١ ص ٩٩

كما عمل نظام جديد لتقدير الأملاك وتحديد الضرائب التى كانت تفرض على كل منها . فوضعا نظاما دقيقا لجباية الضرائب على اختلاف أنواعها . وقد اهتمت الحكومة بتحصيل ما تأخر منها ، كما عنيت بدراسة الشكايات التى كانت تقدم اليها فيما يختص بجباية الضرائب ، وسلكت فى تنفيذ النظام الجديد سبيل الحزم ، فحمت دافعى الضرائب من اشتطاط عمال الجباية بهم. فكان من أثر هذه الخطة الحكيمة ان زادت موارد البلاد زيادة عظيمة .

ويذكر ابن ميسر (١) أنه قد بلغ ما كان يستخرج من الفسطاط فى يوم واحد مقدار يتراوح بين ٥٠٠٠٠و١٢٠٠٠٠ دينار ، وانه قد استخرج من تنيس ودمياط والأشمونين فى يوم واحد أكثر من ٢٢٠٠٠٠ دينار . وهذا بعيد كل البعد عن الحقيقة . إذ لو كان المتوسط ١٠٠٠٠٠ دينار فى اليوم لبلغ فى السنة ٣٦ مليوناً من الدنانير . وهذا شيء كثير لم تبلغه جباية مصر فى عهد الفاطميين . والذى يغلب على الظن ان هذه الآلاف إنما هى دراهم لا دنانير .

ب — الوزارة

كان يتقلد منصب الوزارة ، عند فتح مصر على يد جوهر ، الوزير أبو الفضل جعفر بن الفرات . الذى تولى هذا المنصب مدة طويلة فى عهد العباسيين والأخشيديين . وكان سنيا غالياً . وقد أبى جوهر فى بادىء الأمر أن يلقبه بالوزير وامتنع عن مخاطبته بهذا اللقب . وقال « ما كان وزير خليفه » (٢) . إلا أنه قد أقره فى منصبه ، متمشياً فى ذلك مع سياسته العامة فى هذه البلاد . ولم يبق لابن الفرات من منصبه إلا الاسم فقط ؛ فقد عين جوهر خادماً يبيت مع جعفر فى داره ويلازمه فى غدواته وروحاته ويراقبه فى حركاته

---

(١) ص ٤٦

(٢) المقريزى . اتعاظ الحنفا ص ٧٠ ، ابن خلكان : ج ١ ص ١١٩

وسكناته (١) . ومن ثم ضعف نفوذ هذا الوزير الى حد كبير . ويحدثنا ياقوت (٢) إن جعفر بن الفرات اعتذر عن البقاء فى دست الوزارة بعد وصول المعز الى مصر .

لما علم جعفر بقرب وصول المعز إلى مصر أبى أن يستقبله فى الاسكندرية . فرأى كبار السنيين فى ذلك إحراجاً لمركزهم ، وفرصة يستغلها المعز لاضطهادهم وأخذهم بالشدة والعنف . ومن ثم طلبوا الى جعفر أن يستقبل الخليفة حتى لا يتعرضوا لحنقه وسخطه . فأذعن جعفر لطلبهم ، وخرج لاستقبال المعز فى الاسكندرية .

ولسنا نشك فى أن المعز قد اتصل بمسامعه ما كان من أمر هذا الوزير وإبائه الذهاب لاستقباله فأسرّها فى نفسه . وقد قيل إن المعز سأل ابن الفرات « أحجّ الشيخ ؟ » فقال « نعم » . فقال الخليفة « وزُرْتَ قبر الشيخين (أبو بكر وعمر) ؟» . ولما رأى جعفر بذكائه ودهائه أن المعز قصد بهذا السؤال إحراجه والايقاع به أجابه على الفور : « شغلنى عنهما رسول الله صلى الله عليه وسلم ، كما شغلنى أمير المؤمنين عن السلام على ولى العهد ، السلام عليك يا ولى عهد المسلمين ورحمة الله وبركاته ! » . وكان من أثر هذا الجواب الحكيم أن عرض المعز على جعفر منصب الوزارة ، فاعتذر عن قبوله . فطلب إليه المعز البقاء فى مصر بعد اعتزاله منصبه حتى يكون على مقربة منه لاستشارته فى الأمور الهامة التى تعرض له .

وتقلد منصب الوزارة من بعده يعقوب بن كلس وعُسلوجْ بن الحسين . وقد عهد إليهما المعز بإدارة كافة شئون الدولة الحربية والمدنية ، كما قلدهما فى ١٤ المحرم سنة ٣٦٣ هـ الخراج والحسبة والسواحل والأعشار (٣)

(١) المقريزى : اتعاظ الحنفا ص ٨٥

(٢) إرشاد الأديب : ج ٢ ص ٤١٢

(٣) الأعشار : فرضها عمر بن الخطاب بادئ الأمر على التجار غير المسلمين .

والجوالى(١)والأحباس(٢)والمواريث والشرطتين (٣) . ولا شك فى أن إسناد هذه الأعمال الادارية الكبرى إليهما قد قوّى نفوذهما وأثّر على السلطة التى كان يتمتع بها جوهر من قبل . على أن ابن كلس قد أولى ابن الفرات ثقته التامة وعوّل عليه فى محاسبة العمال . فكان ابن الفرات يختلف إليه ويتناول الطعام عنده . وتوثقت أواصر الصداقة بينهما ولا سيما عند ما تزوج أبو العباس الفضل بن الوزير ابن الفرات بابنة الوزير ابن كلس .

ولم تنته حياة هذا الرجل العظيم بعزله من منصبه فى عهد المعز ، فقد تولى الوزارة فى عهد الخليفة العزيز بالله (٣٦٥ — ٣٨٦ هـ) سنة كاملة ،(٤) كما تقلد الخراج فى سنة ٣٨٢ هـ بعد أن اتهم العزيز وزيره أبا الحسين بن على بن عمر العداس بتبديد أموال الدولة وقبض عليه . وفى ربيع الأول سنة ٣٨٣ هـ أسندت الوزارة إليه ثانية فظل فيها سنة واحدة وتوفى هذا الوزير سنة ٣٩١ (٥) هـ بعد أن تقلد الوزارة فى عهد العباسيين والأخشيديين والفاطميين .

ج ـ القضاء

كان قاضى القضاة فى مصر ، عند ما دخلها الفاتحون بقيادة جوهر . أبو الطاهر ، وهو من قضاة المصريين السنيين ، وكان قد تولى منصبه هذا منذ شهر ربيع الأول سنة ٣٤٨ هـ . فرأى جوهر أن عزله واحلاله قاض من الشيعة

---

(١) الجوالى : هى عبارة عن اختيار الأحسن من كل شىء ، سواء من الممتلكات أو الشاة .

(٢) الأحباس : هى كل ما يوقف على جهة من جهات الخير ، ويصرف مايتحصل من أموالها ، حسبما أراده الواقف .

(٣) ابن خلكان : ج ٢ ص ٤٤٠

(٤) المقريزى : الخطط ج ٢ ص ٨٤

(٥) ابن خلكان : ج ٢ ١٣٩

محله قد يجر الى غضب المصريين وسخطهم. فأقره فى منصبه لغرض سياسى فحسب ، وعمل فى الوقت نفسه على إضعاف نفوذه الى حد بعيد .

ولما وصل المعز الى مصر خف الناس لاستقباله ونزل الركب عن مطيهم وقبلوا الارض بين يديه عدا أبا الطاهر فانه ظل راكبا حتى قرب منه المعز فترجل وسلم عليه ولم يقبل الأرض . فلفت ذلك نظر المعز ، وسأل أحد حجابه عن الرجل الذى خالف الناس كلهم ، فعلم منه أنه قاضى مصر . ولما لام الناس أبا الطاهر على ذلك ذكر قوله تعالى (ومن آياته الليل والنهار والشمس والقمر . لاتسجدوا للشمس ولا للقمر ، واسجدوا لله الذى خلقهن إن كنتم إياه تعبدون) .(١)

أقر المعز أبا الطاهر فى منصبه جريا على نفس السياسة التى اتبعها جوهر منذ أن فتح هذه البلاد . وليس بعيدا أن يكون المعز قد أقر أبا الطاهر فى منصب القضاء لما رآه من ذكائه وحضور بديهته . فقد ذكر المقريزى أن المعز حين قدم مصر سأل أبا طاهر : « كم رأيت من خليفة ؟» . فأجابه على الفور « مارأيت خليفة غير مولانا المعز لدين الله صلوات الله عليه » . فاستحسن المعز ذلك منه ، مع علمه بأن أبا الطاهر رأى المعتضد والمكتفى والمقتدر وغيرهم من الخلفاء العباسيين .

إلا أن سلطان أبى الطاهر قد اضمحل وألزمه المعز أن يصدر أحكامه وفق عقائد المذهب الشيعى . (٢) بل زاد على ذلك فأشرك معه أبا سعيد بن أبى ثوبان المغربى فى شوال سنة ٣٦٢ ﻫ (٣) وأسند اليه النظر فى المظالم الخاصة بالمغاربة . ومالبثت سلطته أن قويت حتى أصبح ينظر أيضا فى القضايا

---

(١) الدكتور حسن ابراهيم حسن : الفاطميون فى مصر ص ١٩٠ نقلا عن المقفى الكبير للمقريزى بليدن .

(٢) الكندى : ص ٥٨٤

(٣) ابن ميسر : ص ٤٤ ، المقريزى : اتعاظ الحنفا ص ٩٢

المشتركة بينهم وبين المصريين ، ثم اشتد نفوذه حتى آل اليه النظر فى قضايا المصريين أنفسهم ، وأصبح يطلق عليه اسم قاضى مصر والاسكندرية . (١)

وفى سنة ٣٦٣ عين المعز قاضيا آخر من الشيعة ، هو على بن أبى حنيفة النعمان المغربى ، فقاسم أبا الطاهر القضاء . فكان يجلس ابن النعمان القضاء فى جامع عمرو ، وأبو الطاهر فى الجامع الازهر . وظلت الحال كذلك حتى استقل على بن النعمان بالقضاء عامة فى شهر صفر سنة ٣٦٦ هـ على أثر استقالة أبى الطاهر لشيخوخته وضعفه . وقد بدا ذلك الضعف عليه على أثر إصابته بفالج أبطل شقه مما جعل العزيز يقول بعد أن رآه على هذه الحالة « مابقى إلا أن يقددوه (٢) » ، وأعلن تقلد على بن النعمان منصب القضاء على منبر الجامع العتيق .

وقد ظل أولاد النعمان يتقلدون هذا المنصب حتى سنة ٣٩٨ هـ . فقد تقلد الحسين بن على بن النعمان القضاء فى مصر ومايتبعهامن الأعمال فى شهر صفر سنة ٣٩٣ هـ ، وأسندت مقاليد الدعوة لقاضى القضاة للمرة الأولى ، فغدا يطلق عليه « قاضى القضاة وداعى الدعاة » .

د — الحسبة

كان المحتسب الى أول عهد الفاطميين سنيا ، فأقاله جوهر على أثر الفتح وعيّن مكانه رجلا من المغاربة ، وذلك فى ربيع الثانى سنة ٣٥٩ هـ . وقد ثار الصيارفة على المحتسب الجديد ، لأنه أنّب جماعة منهم ، فاحتج الباقون وصاحوا : « معاوية خال على بن أبى طالب » . وذكر المقريزى (٣) ان الصيارفة قد شغبوا عند ماعلموا عزم جوهر على حرق رحبتهم . ولكنه عدل

---

(١) الكندى . ص ٣٨٧

(٢) الكندى . ص ٥٨٥

(٣) المقريزى : اتعاظ الحنفا ص ٨٧

عن ذلك خوفا على الجامع . ولما توفى المحتسب المغربى تولى الحسبة سليمان ابن عشزه الذى حدث هذا الشغب فى ولايته الثانية على الخراج .

وقد ارتقى نظام الحسبة فى عهـد الفاطميين . فكانت أعمال المحتسب واسطة بين القاضى وصاحب النظر فى المظالم . وكان ينتخب من أعيان المسلمين . ولاغرو فقـد كان منصب المحتسب من المناصب الدينية الهامة . فكان إليـه الاشراف على الأسواق ، والمحـافظة على الآداب ، واستيفاء الديون ، ومراقبة الموازين والمكاييل ، وكان لها دار خاصة تعاير فيها . (١) فكان المحتسب يطلب جميع الباعة الى هذه الدار فى أوقات معينة ، ومعهم موازينهم وصنجهم ومكاييلهم ، حيث يعايرها ، فان وجد فيها نقصا أبادها وألزم صاحبها بشراء غيرها . ثم تساهل معهم ، فكان يلزم من وجـد فى ميزانه خللا أو فى صنجه نقصا باصلاحه . وقد ظلت هذه الدار طوال عهد الدولة الفاطمية ثم الايوبية . (٢)

وكان للمحتسب نواب ينوبون عنه فى القيام بهذه الأعمال فى مصر وغيرها من البلدان . وكان هؤلاء النواب يطوفون على أرباب الحرف . ويلاحظون الطرق العامة ، ويفتشون قدور الطعام ، ويختمون اللحوم ، ويباشرون محال الجزارة ، ويلزمون رؤساء السفن بألا يحملوا أكثر مما يجب حمله ، ويأمرون السقائين بتغطيـة قربهم ومراعاة عيارها . ويمنعون معلمى الكتاتيب من ضرب الأطفال ضرباً مبرحاً ، ويحـذرون معلمى السبـاحة من التغرير بالصغار .

وكان المحتسب يجلس للفصـل بين النـاس فى جامعى عمرو والأزهر . وقد اتسعت سلطته وزاد خطرها ، حتى كان لزاماً على رجال الشرطة القيام

---

(١) الماوردى : ص٢٢٧ ـ ٢٣٠

(٢) المقريزى : الخطط ج ١ ص ٤٦٣ ـ ٤٦٤ ابن خلدون : مقـدمة ص ٢٢٥ ـ ٢٢٦

بتنفيذ أحكامه . وكان يتقاضى راتبا شهريا قدره ثلاثون ديناراً .

***

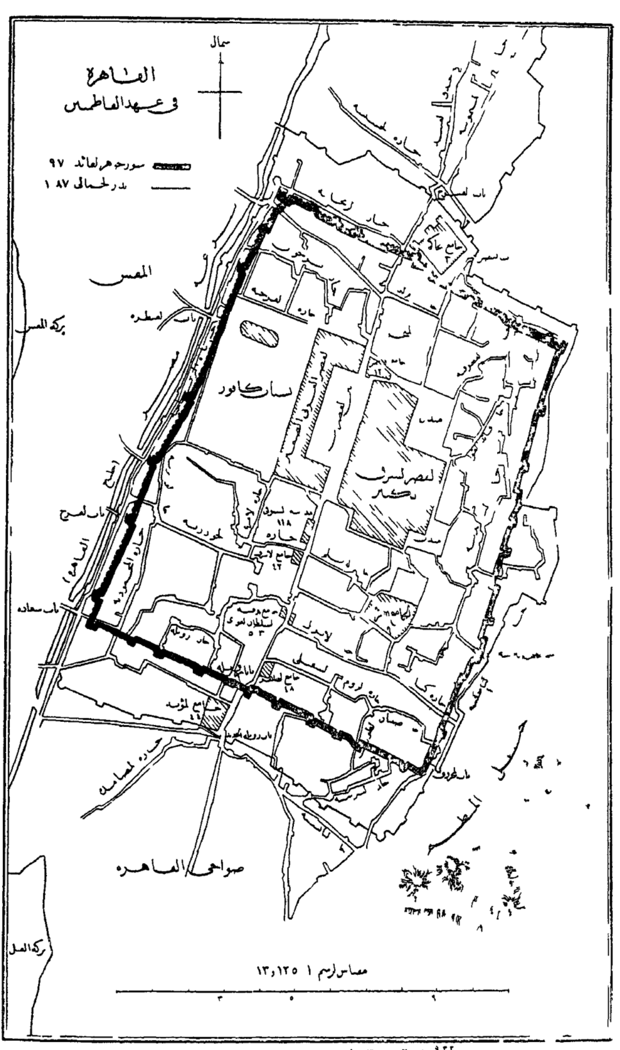
وقد ثار المصريون لما ارتكبه المغاربة من أعمال العنف والشدة ، وما كان منهم من نهب بيوت الاهلين واجلائهم عنها . إلا أن جوهراً قد وضع بحسن سياسته حداً لما أتاه هؤلاء المغاربة من الفوضى وما أثاروه من القلاقل ، فأمر بقتل جماعة منهم . ولا شك فى أن تنكيل جوهر بهؤلاء المشاغبين والضرب على أيديهم كان مظهراً من مظاهر سياسته الحكيمة . وكان غرضه من ذلك أن يوقف المغاربة عند حدهم ، حتى لا تتجدد الثورات التى كان يقوم بها الاهلون دفاعا عن أموالهم وأرواحهم .

من هنا نرى أن جوهراً قد وضع أساساً صالحا للسياسة التى جرى عليها الفاطميون فى مصر ، فقد أخذ بالشدة والبطش كل من حاول العبث بالنظام . وقد سار المعز على مثال جوهر حين عاد المغاربة سيرتهم الاولى فى سنة ٣٦٣ هـ ، حيث احتلوا دور المصريين بعد أن طردوهم منها . فأمر المعز بإخراج هؤلاء المغاربة إلى مكان قريب من عين شمس ، وجعل لهم والياً وقاضياً للنظر فى أحوالهم . (١) وبذلك تم انفصال المغاربة أنصار الدولة الفاطمية الشيعية عن المصريين السنيين ، وانطفأت نيران الفتن التى طالما كانت تقوم بين الفريقين بسبب اختلاطهم بعضهم ببعض . ولم نسمع بعد ذلك عن هذه الفتن شيئا ، اللهم إلا فى الاحتفالات الدينية ، كالاحتفال باليوم العاشر من المحرم ، ذكرى اليوم الذى قتل فيه الحسين بن على بكربلاء (٢)

---

(١) المقريزى : اتعاظ الحنفا ص ٩٦

(٢) المقريزى : اتعاظ الحنفا ص ٨٧ ، ٩٤ ، ابن ميسر : ص ٤٥



القاهرة
في عهد الفاطميين
شمال
سور جوهر القائد ٩٧
بدر الجمالي ٨٧ ١
المقس
بستان كافور
القصر الشرقي الكبير
ضواحي القاهرة
مقياس الرسم ١ ١٢٥، ١٣
٣
٥
٩

الباب الرابع
منشئات جوهر فى مصر

الفصل الاول

تأسيس مدينة القاهرة

كان من أهم ما يرمى اليه ولاة المسلمين فى مصر وفى غيرها من البلاد الاسلامية التى فتحوها أن يؤسسوا قاعدة لملكهم تسع جندهم وتأوى أنصارهم وتضم بين جوانبها دواوين حكومتهم ، ثم يبنون فيها مسجداً يقيمون فيه شعائر دينهم. وقد سنّ هذه السُّنّة ولاة مصر منذ فتحها عمرو بن العاص الذى أسس الفسطاط ، وجاء بعده صالح بن علىّ العباسىّ ، فأسس هو وأبو عَوْن مدينة العسكر ، وأسس احمد بن طولون مدينة القطائع ، ثم جاء جوهر فبنى مدينة القاهرة.

تعتبر مدينة الفسطاط أقدم هذه العواصم . فقد أسسها عمرو بن العاص بعد أن تم له فتح مصر وأجلى الروم عنها (سنة ٢٠ ﻫ وسنة ٦٤٠ م). وكان عمرو يريد أن يتخذ الاسكندرية ، وكانت قاعدة هذه البلاد منذ أيام الاسكندر المقدونى (سنة ٣٣٠ ق م) ، حاضرة لولايته الجديدة ، إذ كانت عامرة آهلة بالسكان ، وأرسل بذلك إلى عمر بن الخطاب رضى الله عنه . فسأل الخليفة رسول عمرو : «هل يحول بينى وبين المسلمين ماء ؟» قال «نعم ياأمير المؤمنين إذا جرى النيل » . فكتب الى عمرو « إنى لا أحب أن تنزل بالمسلمين منزلا يحول الماء بينى وبينهم فى شتاء ولا صيف ، فلا تجعلوا بينى وبينكم ماء ، متى أردت أن أركب اليكم راحلتى حتى أقدم اليكم قدمت » . وأشار عليه باتخاذ مدينة أخرى غير الاسكندرية .

ولا غرو فقد كان عمر بعيد النظر ، لأن العرب لم يكونوا أمة بحرية، ومن ثم لم تعد الاسكندرية صالحة لأن تكون حاضرة للديار المصرية . فلم يكن بد إذاً من أن تتخذ العاصمة الجديدة إما على البحر الاحمر وإما فى مكان تسهل منه المواصلات البرية مع بلاد العرب . ولما كان موضع الفسطاط يقع على الطريق الى بلاد العرب ، وفى مكان يسهل منه الاشراف على قسمى الديار المصرية شمالا وجنوبا ، اتخذه عمرو حاضرة لولايته .

تقع الفسطاط فى ذلك الفضاء المتسع الذى عسكر فيه عمرو بجنده عند حصاره حصن بابليون ، والذى لا يبعد كثيرا عن منف عاصمة مصر القديمة . وكانت فضاء ومزارع بين النيل والمقطم ، ليس فيه من البناء والعمارة سوى حصن بابليون . (١)

وقد سميت هذه المدينة بهذا الاسم لأن عمرو بن العاص لما أراد التوجه إلى الاسكندرية لقتال الروم أمر برفع فسطاطه (٢) فوجد أن يمامة قد باضت فيه ، فأمر عمرو بابقائه كما هو . فلما رجع المسلمون من الاسكندرية سألوا عمرا عن المكان الذى ينزلون فيه فقال: « الفسطاط » إشارة إلى فسطاطه الذى تركه لتبيض اليمامة فيه . وبذلك سميت المدينة كلها « بالفسطاط ». (٣)

شرع عمرو بعد أن فتح مدينة الاسكندرية ونزل بجنده بجوار حصن بابليون فى تأسيس مدينة الفسطاط ؛ فاختط أول جامع بنى فى مصر ، فسمى الجامع العتيق أو تاج الجوامع ، ثم أطلق عليه بعد ذلك جامع عمرو ، وهو الاسم الذى لا يزال يعرف به حتى اليوم (٤) ثم اختطت القبائل

---

(١) المقريزى : الخطط ج ١ ص ٢٨٩

(٢) خيمته

(٣) المقريزى : الخطط ج ١ ص ٢٩٦ . وقد قيل فى تسمية الفسطاط اقوال اخرى ليس هنا مجال بحثها

(٤) Stanly Lane - Poole · The Story of Cairo P 42.

العربية دورهابالقرب من ذلك المسجد . وهكذا أنشئت الفسطاط وبنيت فيها المساكن ونزل بها الناس ، واتسع نطاقها ، وأصبحت حاضرة الديار المصرية ؛ كما . أصبحت من أمهات العواصم الاسلامية . (١)

ولما انتقلت السيادة الى العباسيين وولى صالح بن على العباسى ولاية مصر ، رأى أن الفسطاط قد ضاقت بعسكره ، فأسس مدينة العسكر سنة ١٣٣ هـ (٧٥٠ م) فى الفضاء الواقع فى الشمال الشرقى لمدينة الفسطاط، واتخذها حاضرة له . ومن أجل ذلك أطلق عليه اسم العسكر ؛ وكانت بالنسبة الى الفسطاط أشبه بفرساى بالنسبة الى باريس . (٢) وكان موضعها يعرف فى صدر الاسلام باسم الحمراء القصوى ، وهو المكان الذى نزلت فيه ثلاث قبائل من العرب (٣) عقب الفتح الاسلامى . وقد هجرتها هذه القبائل منذ ذلك الحين فأصبح مكانها قفرا . وفى ذلك المكان أنشئت العاصمة الجديدة ؛ وهى تمتد من الفسطاط الى جبل يشكر الذى بنى فوقه جامع ابن طولون .

وهناك أقام العباسيون دورهم ، واتخذوا مساكنهم . ثم أقام صالح بن

---

(١) ظلت الفسطاط مركزا للحركة التجارية عامرة بالدور آهلة بالسكان حتى دخل مصر عمورى Amalaric ملك بيت المقدس فى سنة ٥٦٣ هـ (سنة ١١٦٨م) . فلم يستطع شاور وزير الخليفة الفاطمى العاضد الدفاع عنها . لأن المدينة لم تكن على عهدها الأول من القوة . أضف الى ذلك خوفه من دخول الفرنجة فيها . فأمر باخلائها وحرقها . ويقول المقريزى : « وبعث شاور إلى مصر بعشرين ألف قارورة نفط وعشرة آلاف مشعل نار فرقت فيها ، فارتفع لهب النار ودخان الحريق الى السماء ، فصار منظراً مهولا . فاستمرت النار تأتى على مساكن مصر من اليوم التاسع والعشرين من صفر لتمام اربعة وخمسين يوما ... ومن ثم تحولت مصر الفسطاط الى الأطلال المعروفة الآن بكيمان (تلال) مصر» . ولم يتخلف من بقايا تلك المدينة البائدة الا جامع عمرو وقصر الشمع .(الخطط : جـ ١ ص ٣٣٨ ـ ٣٣٩)

(٢) Stanly Lane - Poole : The Story of Cairo P · 65

(٣) بنى يشكر ، بنى روبيل ، بنى الأزرق (المقريزى : الخطط جـ ١ ص ٣٠٤)

علىّ دار الامارة وثكنات الجنود وسط هذه العاصمة ، كما اتخذ المنصور من بعده قصر الذهب وسط مدينة بغداد ، حتى لايكون أحد أبعد اليه من الآخر (١) . وفى سنة ١٦٩ هـ (٧٨٥ م) أسس الفضل بن صالح أحد ولاة العباسيين مسجد العسكر بجوار دار الامارة فأصبح من المساجد الجامعة بالديار المصرية . ثم سمح للناس بالبناء حول العسكر ، فكثرت فيها العمارة حتى اتصلت بالفسطاط ، وأصبحت مدينة كبيرة بها الشوارع والمساجد والدور والبساتين والاسواق . وهكذا أصبحت العسكر مقر الامارة والادارة والشرطة (١٣٢ — ٢٥٤ هـ) .

ولكن أهمية العسكر قدقلت كثيراً منذ بنى أحمدبن طولون مدينة القطائع ، فصار يذكر اسم الفسطاط والقطائع وترك اسم العسكر . فأصبحت هذه المدينة كأن لم تغن بالأمس . وقد ظل أمراء مصر يقيمون فى دار الامارة فى العسكر حتى بنى جوهر الصقلى قائد المعز مدينة القاهرة (٢) . جاءت بعدذلك الدولة الطولونية (٢٥٤ — ٢٩٢ هـ) ، فرأى أحمد بن طولون أن مدينة العسكر قد ضاقت بجنده وخدمه وعبيده . فسار على سنة عمرو بن العاص وصالح بن على العباسى فى تخطيط حاضرة جديدة تسع جنده وتوفر لهم مرافق الحياة ، فاختار فى سنة ٢٥٦ هـ (٨٧٠ م) المنطقة الواقعة شمالى الفسطاط بين جبل يشكر وسفح المقطم قرب دار الامارة بالعسكر لتأسيس

---

(١) Le Strange : Baghadad during The Abbasid Caliphate p. 91

(٢) تخربت مدينة العسكر فى عهد الخليفة المستنصر الفاطمى على أثر المجاعة التى حدثت فى ذلك الحين . فان بدر الجمالى لما حضر الى مصر وأخذ فى تعمير القاهرة من جديد نقل اليها ما كان بالعسكر والقطائع من أنقاض المساكن ، حتى صار مكان هاتين العاصمتين موحشاً مقفراً . ولم يبق عامراً الى الآن من العسكر سوى جبل يشكر الذى بنى عليه جامع ابن طولون .

الحاضرة الجديدة التى سميت (بالقطائع) . ويقول المقريزى (١) إن مدينة القطائع كانت تمتد من قبة الهواء التى بنيت على أطلالها قلعة الجبل الى جامع ابن طولون ، ومن الرميلة الواقعة تحت قلعة الجبل الى مسجد زين العابدين . وقد قدرت مساحتها بميل فى ميل . (٢)

اتخذ أحمد بن طولون تحت موقع القلعة دارا يقيم فيها تحيط بها حديقة غناء ، ثم أسس مسجده المشهور المعروف باسمه ، وأقام بجواره دار الامارة ، وجعل فيما بين المسجد والقصر ميداناً فسيحاً كان يلعب فيه ابن طولون وجنده بالصوالجة (٣) ؛ وقد بلغ من الاتساع مبلغاً عظيما حتى سمى القصر كله بالميدان . ثم اختط كبار رجال دولة ابن طولون وقواده وغلمانه دورهم حول ذلك الميدان واتخذت كل طائفة منهم قطيعة (٤) خاصة بها ، كما جعل للطوائف المختلفة وكذلك لأرباب الحرف والصناعات والتجار قطائع خاصة . وكانت كل قطيعة تسمى باسم الطائفة التى تسكنها ، فسميت المدينة كلها « بالقطائع » . ثم أخذ الناس فى البناء ، فعمرت المدينة ، وأقيمت فيها الدور الفخمة والمساجد والحمامات حتى اتصلت ابنيتها بالفسطاط . وجاء بعده ابنه خمارويه فوسع القطائع وجملها « وأقبل على قصر أبيه وزاد فيه ، وأخذ الميدان الذى كان لأبيه فجعله كله بستاناً ، وزرع فيه أنواع الرياحين وأصناف الشجر» . (٥)

---

(١) الخطط جـ١ ص ٣١٣ ، ابن دقاق : جـ ٤ ص ١٢١ و١٢٢

(٢) ابن دقاق جـ ٤ ص ١٢١ . ويقال ان الذى قدر هذه المساحة هو ابن سعيد الاندلسى الذى زار مصر أيام الملك الصالح أيوب .

الميل ثلث الفرسخ ويقدر بثلاثة أو أربعة آلاف ذراع .

(٣) المقريزى : الخطط جـ ١ ص ٣١٥ . والمراد بذلك لعبة الكرة المعروفة عند الانكليز والفرنسيين باسم پولو « Polo » ؛ وهى شبيهة بلعبة كرة القدم .

(٤) القطيعة : جزء من الأرض

(٥) المقريزى : الخطط جـ ١ ص ٣١٦

ولما توفى خمارويه (سنة ٢٨٢ ه و ٨٩٥ م) أخذت الدولة الطولونية فى الضعف والانحلال . فبعث الخليفة المكتفى القائد العباسى المشهور محمد بن سليمان الكاتب لاسترداد مصر . فهزم الاسطول المصرى وفر هارون بن خمارويه الى مدينة العباسة (١) ، حيث قتله عماه شيبان وعدى . فلم يرض الجند عن عملهما ، ورفضوا إقرار تعيين شيبان وكاتبوا محمد بن سليمان . فنزل الفسطاط وسار منها الى القطائع عاصمة الطولونيين (سنة ٢٩٢ ه و ٩٠٤ م) وأشعل فيها النار . فالتهمت الدور والمساجد والحمامات والاسواق والبساتين ، وأصبحت تلك المدينة الزاهرة أثراً بعد عين . (٢)

هكذا زالت الدولة الطولونية وخربت القطائع وأضحت أطلالا دارسة لم يبق منها غير المسجد الجامع . ومن ثم عادت الفسطاط مقر الامارة ومركز الادارة والجند ، فزادت مبانيها وعمرت أرجاؤها . وظلت الحال على ذلك حتى فتح مصر جوهر الصقلى قائد جيوش المعز لدين الله الفاطمى وأسس مدينة القاهرة سنة ٣٥٨ ه (٩٦٩ م) .

***

تعتبر القاهرة رابعة حواضر مصر الاسلامية . وقد تأسست سنة ٣٥٨ ه (٩٦٩ م) على أثر دخول جيوش المعز لدين الله الفاطمى بقيادة جوهر وقضائها على الدولة الاخشيدية .

دخل جوهر الصقلى مدينة الفسطاط فى ١٧ شعبان سنة ٣٥٨ ه (١٧ يوليه سنة ٩٦٩ م) وعسكر فى الفضاء الواقع شمالها . وفى تلك الليلة نفسها وضع جوهر أساس المدينة التى عزم على انشائها لتكون حاضرة الدولة الفاطمية ، كما وضع أساس قصر مولاه المعز . (٣) وقد اختطت كل قبيلة من

---

(١) بليدة أول مايلقى القاصد لمصر من الشام .

(٢) المقريزى : الخطط ج ١ ص ٣٣٢ ، ابن دقماق : ج ٤ ص ١٢١

(٣) Stanley Lane - Poole : The Story of Cairo P .118

G. Migeon : Art Musulman, tome I. p. 44.

البربر حول ذلك القصر خطة عرفت باسمها . فاختطت جماعة من برقة الحارة البرقية واختطت الروم حارتين : إحـداهما حارة الروم الآن والأخرى حارةالروم الجوانية بقرب باب النصر . (١)

أسس جوهر مدينة القاهرة لتـكون مقرا للملك الفاطميين ومركز النشر دعوتهم الدينية ، ويتخذها حصنا منيعا لصد هجمات القرامطة الذين بدءوا يهددون حدود مصر الشمالية . اضف الى ذلك ماكان من زحفهم على بلاد الشام وكانت تابعـة لمصر اذ ذاك واستيلائهم على دمشق . ومن ثم لم ير الفاطميون بدا من اتقاء شرهم وردغاراتهم . (٢)

ويكاد يشبه موقف جوهر فى عدوله عن اتخاذ الفسطاط أوالعسكر عاصمة له وتفـكيره فى انشاء عاصمة جديدة تفى بأغراض الدولة الفاطمية موقف المنصور عندمافكر فى بناء بغداد. فقد كانت أمامه عواصم اسلامية عديدة يستطيع أن يتخذ أحدها حاضرة له . ولـكنه نظر الى المدينة فوجدهالا تصلح لأن تكون حاضرة للخلافه ، فقد تغير الزمن واصبح البون شاسعا بين زمن النبى صلى الله عليـه وسلم وزمن العباسيين . والفى دمشق حافلة بذكريات الأمويين ، كما كانت الكوفة مركز الشيعة ، هواها مع على وأولاده . اما الهاشمية فكانت قريبة من الـكوفه ، وكان المنصور لا يأمن على نفسه المقام فيها ، ولاسيما بعد واقعـة الراوندية . فلم يكن بد اذاً من أن يتجه المنصور شرقا نحو غرب فارس ، حيث كان الأهلون يقدسون ملوكهم فى عهد بنى ساسان وحيث كان أنصاره ممن قامت الدولة العباسية على اكتافهم . (٣)

---

(١) أبو المحاسن . جـ ٢ ص ٤١٦

G. Wiet : précis d'Hitoire Musulmane de L'Egypte. 32

(٢) المقريزى : الخطط جـ ١ ص ٣٦١

(٣) G. Le Strange : Baghdad During the Abbasid Caliphate p. p. 1-6.

كذلك فعل كل من قسطنطين والاسكندر من قبله . فقد رأى قسطنطين أن أثينا لاتصلح لأن تكون حاضرة لدولته لقربها من بلاد اليونان الغربية موطن الديموقراطية وشغب مجلس السناتو ، فحوّل وجهه نحو الشرق مهد الاستبداد والحكم الفردى القديم ، ورأى أن موقع بيزنطة هو المكان الذى يصلح لأن يكون حاضرة لملكه ، لأنه يفى بتحقيق أغراضه السياسية والدينية . وأما الاسكندر الأكبر فقد اختار موقع مدينة رافودة (١) لبناء الاسكندرية لتكون حاضرة لدولته وموطنا للثقافة اليونانية ، وذلك لقربها من بلاد اليونان ووقوعها على البحر الأبيض المتوسط واسطة العقد بين دول العالم القديم . هذا الى أن اليونان كانت أمة بحرية . ومن ثم كان من الضرورى ان تتخذ حواضرها على البحر .

من ذلك نرى أن أول ما كان يتجه اليه نظر أكثر الفاتحين الذين يقيمون دولهم على أنقاض دولة اخرى ، أن يتخذوا عاصمة جديدة تفى بحاجات دولتهم الناشئة .

ولما فرغ جوهر من بناء قصر الخليفة وأقام حوله السور ، سمى المدينة كلها بالمنصورية نسبة إلى المنصور أبى المعز ، وظلت هذه التسمية حتى قدم المعز إلى مصر فسمّاها القاهرة (٢) . وقد اختلف المؤرخون فى تسمية هذه المدينة بهذا الاسم : فقال ابن دقماق (٣) انها سميت بذلك لأن أساسها شق (٤) على طلوع كوكب رصده أحد الحكماء السبعة الذين كانوا بديار مصر وهو

---

(١) راقودة أوراقوتيس كانت قرية صغيرة بجوار موقع الاسكندرية الحالى (المقريزى الخطط جـ ١ ص ١٤٤) .

(٢) المقريزى اتعاظ الحنفا ص ٧٣ ، الخطط جـ ١ ص ٣٧٧ ، أبو المحاسن جـ ٢ ص ٤١٥ ابن دقماق ص ٣٥

(٣) الانتصار لواسطة عقد الأمصار جـ ٦ ص ٣٥

(٤) حفر

كوكب يقال له «القاهر» . ويقول المقريزى (١) «إن القائد جوهر لما أراد بناءها أحضر المنجمين وعرّفهم أنه يريد عمارة بلد ظاهر مصر ليقيم بها الجند ، وأمرهم باختيار طالع سعيد لوضع الأساس بحيث لايخرج البلد عن نسلهم أبداً . فاختاروا طالعا لوضع الاساس ، وطالعا لحفر السور . وجعلوا بدائر السور قوائم خشب ، بين كل قائمتين حبْل فيه اجراس ، وقالوا للعمال ، إذا تحركت الأجراس فارموا ما بأيديكم من الطين والحجارة. فوقفوا ينتظرون الوقت الصالح لذلك . فاتفق أن غرابا وقع على حبل من تلك الحبال التى فيها الأجراس فتحركت كلها ؛ فظن العمال أن المنجمين قد حركوها ، فالقوا ما بأيديهم من الطين والحجارة وبنوا . فصاح المنجمون القاهر فى الطالع . فمضى ذلك وفاتهم ما قصدوه . ويقال إن المريخ كان فى الطالع عند ابتداء وضع الأساس ، وهو قاهر الفلك ، فسمرها القاهرة ».

ونحن لانستبعد صحة هذه الرواية ، ولاسيما أن المعز — على ماذكره ابن القلانسى - (٢) كان مغرما بعلم النجوم ، وكان يستشير منجمه فى كل مايتعلق بحياته الخاصة وفى أمور الدولة العامة . على أنه يظهر لنا أن هذه الحكاية تكاد تكون خرافة من تلك الخرافات التى يخلقها الناس ويتحدثون بها عند تخطيط عاصمة من العواصم . فقد ذكر المقريزى نفس هذه الحكاية عند كلامه على بناء مدينة الاسكندرية فى عهد الاسكندر .

وقيل أيضا انها سميت القاهرة لانها تقهر من شذ عنها وحاول الخروج على أميرها . وليس بعيدا أن يكون اسم القاهرة مأخوذا من قول المعز لجوهر عند مسيره لفتح مصر « ولتدخلن فى خرابات ابن طولون وتبنى مدينة تقهر الدنيا» (٣)

---

(١) الخطط ج ١ ص ٣٧٧ ، ابو المحاسن ج٢ ص ٤١٦

(٢) ذيل تاريخ دمشق ص ١٤ ، ابو المحاسن ج ٢ ص ٤١٦ ، ٤٤١ ، المقريزى الخطط ج ١ ص ٢٥٤

(٣) القلقشندى ج ٣ ص ٣٤٩

تقع القاهرة المعزية (١) شمال الفسطاط . وكانت وقت انشائها تمتد من منارة جامع الحاكم الى باب زويلة ؛ وكانت حدودها الشرقية هي حدود القاهرة الحالية . أما الجهة الغربية فلم تتجاوز شارع الخليج (٢) . وعلى ذلك فهي تحد شمالا بباب النصر ، وجنوبا بباب زويلة ، (٣) وشرقا بباب البرقية والباب المحروق(٤) (الدراسة الآن) ، وغربا بباب السعادة وباب الفرج وباب الخوخة .

وتشمل القاهرة المعزية — على مارواه المقريزى — احياء الجامع الأزهر والجمالية والحسينية وباب الشعرية والموسكى والغورية وباب الخلق . (٥) ويقال إن المعز لما قدم القاهرة ورأى انه لاساحل لها لم يعجبه موقعها ، وقال « ياجوهر فاتتك عمارتها هاهنا ، (٦) يريد المقس » .

---

(١) اطلق على المدينة التى بناها جوهر للمعز اسم « القاهرة المعزية » نسبة الى الخليفة المعز (ابن خلكان جـ ٢ ص ١٠٣) ، كما أطلق عليها اسم « القاهرة المحروسة » لارتفاع سورها وضخامة أبوابها

Stanley Lane - Poole : The Story of Cairo p. 123, 127

(٢) G. Wiet : brécis d'His toire Musulmane de L'Egypte

(٣) ليس باب زويلة من المدينة التى أسسها جوهر بل هو زيادة حدثت بعد ذلك .

(٤) يلاحظ ان موضع هذين البابين هو غير الموضع الذى كانا فيه أيام جوهر

(٥) المقريزى الخطط جـ ١ ص ٢٧٣

Stanley Lane-Poole : The Story of Cairo,

(٦) المقريزى اتعاظ الحنفا ص ٧٤

(٧) المقس ضيعة كانت تعرف بأم دنين واقعة على ساحل النيل ، وقد جعلها المعز مرفأ صناعيا وأنشأ بها الخليفة الحاكم جامع المقس . وكانت تسمى المكس لاقامة صاحب المكس والعشار فيها ، ثم قلبت فقيل المقس . والمكس دراهم كانت تؤخذ من بائعى السلع فى الأسواق . (المقريزى : الخطط جـ ٢ ص ١٢١)

وقد أحيطت القاهرة بسور كبير (١) من اللّبن ، يُقدّر حجم اللّبِنة منه بذراع فى ثلثى ذراع . وقد ضم ذلك السور بين جوانبه الخطط التى تكونت منها القاهرة المعزية ؛ وكان بمثابة حصن يتحصن فيه جوهر ضد هجمات القرامطة . والى الجنوب الشرقى من ذلك السور تقع مدينة الفساط ، والى الغرب منه تقع المقس ، وكانت ميناء القاهرة حتى تأسست بولاق (٢) بعد أن تحول مجرى النيل فى القرنين الثالث عشر والرابع عشر للميلاد . وقد أصبحت بولاق مدينة تجارية منذ سنة ٧١٣ هـ عند ما أمر الملك الناصر بعمارتها ، وبنى بها الدور على شاطىء النيل فسكنها الناس وعمّروها .

وكان اسم القاهرة يطلق على الجزء الواقع بين الأسوار ، بينما كان يعرف الجزء الواقع خارج هذه الأسوار بظاهر القاهرة ، وهو خطط وأحياء جديدة تمتد فيما بين جامع ابن طولون وقلعة الجبل ، وبين جبل المقطم والجهة المقابلة له من ضفة النيل ، وهى المعروفة الآن بأحياء بولاق وشبرا وباب اللوق (٣) .

وفى ليلة الأربعاء ١٨ شعبان سنة ٣٥٨ هـ وضع جوهر أساس القصر الذى بناه لمولاه المعز ، فى ذلك الفضاء الفسيح بداخل سور القاهرة ، وكان يقع شرقى سور المدينة . لذلك أطلق عليه اسم القصر الكبير الشرقى . وكان يسمى هذا القصر أيضا القصر المعزى ، لأن المعز لدين الله هو الذى أمر

---

(١) بنى سور القاهرة ثلاث مرات : الاولى فى سنة ٣٥٨ هـ فى عهد القائد جوهر ، والثانية فى سنة ٤٨٠ هـ فى خلافة المستنصر ، والثالثة فى سنة ٥٦٦ هـ فى عهد الملك الناصر صلاح الدين يوسف بن أيوب (المقريزى الخطط جـ ١ ص ٣٧٧ على يد وزيره بدر الجمالى الذى هدم هذا السور وبناه بالأحجار (أبوالمحاسن جـ ٢ ص ٤٢٣)

(٢) Stanly Lane - Poole : Egypt in the Middle Ages p. 112

(٣) المقريزى : الخطط جـ ١ ص ١٠٩

جوهرا ببنائه حين سيره لفتح مصر ، ووضع له رسمه . (١) وكان يسكنه الخليفة ويجلس فيه للنظر فى أمور الدولة ، كما كان به دواوين الحكومة وخزائن السلاح وغيرها ، وكذلك الجند لحراسة الخليفة . ويذكر المسيو ميجون أنه كان يحتوى على أربعة آلاف حجرة . (٢)

وكان فى ذلك القصر أبواب كثيرة ؛ نخص بالذكر منها باب الذهب ، تعلوه منظرة يشرف منها الخليفة فى بعض الأوقات ، وباب العيد وأمامه رحبة متسعة تقف فيها الجنود فى يومى العيدين وتعرف برحبة العيد ، وباب الديلم وموضعه الآن مسجد الحسين ، ويصل الى باب الزعفران ، وهى مقبرة الخلفاء وسائر أفراد الأسرة المالكة ، وموضعه خان الخليلى الآن . وقد دفن المعز فى هذه المقبرة جثث آبائه المهدى والقائم والمنصور التى أحضرها معه فى توابيت من بلاد المغرب . وقد ظلت هذه المقبرة مدفنا للخلفاء وأولادهم ونسائهم حتى أنشأ فيها ركن الخليلى ، أحد أمراء المماليك ، خانه المعروف باسمه ، فأخرج منها عظامهم وألقاها على تلال البرقية (٣) . بين باب الديلم وباب تربة الزعفران الخوخ السبع التى كان يصل منها الخليفة الى الجامع الأزهر فى ليالى الوقود (٤) . فيجلس بمنظرة هذا الجامع لمشاهدة الناس . ويقابل باب الديلم الجامع الأزهر فى الجنوب الشرقى من القصر ، وكان يصلى فيه الخليفة صلاة الجمعة . وبجوار رحبة باب العيد دار

---

(١) المقريزى : الخطط ج ١ ص ٣٨٤

(٢) G. Migeon : Art Musulman, tome I. P. 42.

(٣) المقريزى : الخطط ج ١ ص ٤٠٧

(٤) ليالى الوقود : هى الليالى التى تسبق أول ومنتصف شهرى رجب وشعبان . وكان الناس تبعا للتعاليم الشيعية يصومون بعض هذين الشهرين كصومهم رمضان . ولذلك كانوا يحتفلون بهذه الايام الاربعة كما يحتفلون برمضان . واستمر الاحتفال بهذه الايام الى وقتنا الحاضر .

الضيافة ، وكان يسمى بدار سعيد السعداء ، ويقابلها دار الوزارة . وكان هناك طريق يوصل بين باب تربة الزعفران وباب الزُّهُومة (١) . وبين هذا الباب والجامع كانت خزائن القصر ومن بينها خزائن الكتب والمشروبات والأسلحة والكسى والفرش ، وكانت تقع فى الجهة الشرقية من القاهرة المعزية .

وقد دخل المعز ذلك القصر فى اليوم السابع من شهر رمضان سنة ٣٦٢ هـ وأثثه بفاخر الرياش وكل مايحتاج إليه الملوك والخلفاء (٢) .

وكان يقع أمام القصر الشرقى ، القصر الذى بناه العزيز ، وكان أصغر منه ويعرف بالقصر الغربى . وقد بنى فى موضعه المارستان الكبير المنصورى . ولا يزال بعضه الى اليوم يعرف بسوق النحاسين (٣) ، وبجواره الميدان والبستان الكافورى (٤) ودار الضيافة القديمة ورحبة الاقبال . وكان بين ذلك القصر والقصر الشرقى الكبير فضاء متسع يسع عشرة آلاف جندى ، أطلق عليه فيما بعد « بين القصرين » . وقد اختط جوهر طريقاً عاماً يمر وسط القاهرة من باب زويلة جنوبا الى باب الفتوح .

ويصف لنا على مبارك باشا (٥) مدينة القاهرة على النحو الذى كانت عليه أيام المعز فى هذه العبارة : « شكل مدينة القاهرة فى أيام القائد جوهر كان مربعا تقريبا ، ضلعه ألف ومائتا متر ، ومساحة الأرض المحصورة فيه ثلثمائة وأربعون فدانا : منها نحو سبعين فدانا بنى فيها القصر الكبير ، وخمسة وثلاثون فدانا للبستان الكافورى ، ومثلها للميادين ، فيكون الباقى مائتى فدان

---

(١) سمى بباب الزهومة لأنه كانت تشم منه رائحة اللحم .

(٢) المقريزى اتعاظ الحنفاء ٧٤

(٣) Stanley Lane-Poole : The story of Cairo p. 128

(٤) البستان الكافورى : هو الحديقة الغناء التى أنشأها كافور واستولى عليها الفاطميون . وكان يقع غربى سوق النحاسين الآن .
G. Migeon ; Art Mussnlman, tome I. p. 41).

(٥) الخطط جـ ١ ص ٨١

هو الذى توزع على الفرق العسكرية فى نحو عشرين حارة بجانبى قصبة القاهرة . وكان سور المدينة الغربى بعيداً عن الخليج بنحو ثلاثين متراً ، وفى سنة ستة وثمانين وأربعمائة فى وزارة بدر الجمالى وخلافة المستنصر بالله الفاطمى هدم هذا السور وبنيت الأبواب من حجر . (١) »

ولما اختط القائد جوهر مدينة القاهرة جعل لها أربعة أبواب : هى بابا زويلة وباب النصر وباب الفتوح . ويقول ستانلى لين پول (٢) ان بابى زويلة يتكونان من بابين متجاورين ، أحدهما القوس الذى كان بجوار المسجد المعروف بسام بن نوح عليه السلام ، ولهذا سمى « باب القوس » . وقد مرّ منه المعز عند قدومه من بلاد المغرب ، فكان الناس يمرون منه تبركا . أما الباب الثانى فقد تشاءم منه الناس وهجروه . ويقول القلقشندى (٣) إن جوهراً سمى بابى زويلة بهذا الاسم نسبة الى قبيلة زويلة ، احدى قبائل البربر التى جاءت معه من بلاد المغرب . ولما قدم أمير الجيوش بدر الجمالى وزير الخليفة المستنصر مصر فى سنة ٤٨٥ هـ (فى زمن الشدة العظمى) بنى باب زويلة الكبير الذى لا يزال باقيا الى اليوم . أما باب النصر فقد بناه جوهر خارج مدينة القاهرة ، وظل فى موضعه حتى جاء بدر الجمالى ونقله الى المكان الذى يوجد به الآن . أما الباب المعروف بباب الفتوح الآن فهو من عمل أمير الجيوش بدر الجمالى . وقد بناه فى غير المكان الذى بنى فيه جوهر بابه الذى لم يبق منه سوى عقده وعضادته اليسرى (٤) . ويقول مسيوفيت : إن هذه الأبواب الثلاثة التى جدّد بناءها بدر الجمالى تجمع بين سلامة الذوق ودقة

---

(١) ذكر الاستاذ مرجوليوث Margoliouth : Cairo Ierusalem and Damascus (ان السور الذى أقامه بدر الجمالى قد زاد مساحة المدينة ٦٠ فدانا

(٢) Stanly Lane - Poole : The story of Cairo P · 129

(٣) صبح الأعشى جـ ٣ ص ٣٥٢

(٤) المقريزى : الخطط : جـ١ ص ٣٨١

البناء . وهى من عمل اخوة ثلاثة أصلهم من مدينة الرها (١) »

وكانت القاهرة فى أيام جوهر صغيرة ليس بها سوى قصر الخليفة والجامع الأزهر وثكنات الجنود ودور المغاربة ورجال الحاشية وحرس الخليفة .(٢) وكان سكانها جميعا من الشيعة . ثم ظلت تتدرج فى العمران حتى بلغت فى نهاية عهد الفاطميين درجة كبيرة من التقدم ، فأقيمت فيها المبانى الفخمة والقصور الشاهقة والاسواق الكبيرة ، وأنشئت فيها الحدائق الغناء ، وبنيت بها الدور والحمامات والحوانيت والمدارس والمساجد والفنادق ، واختطت الشوارع والازقة والدروب والحارات .

---

(١) G. Wiet : Précis d'Histoire Musulmane de l'Egypte P · 36 - 37

أنظر أيضاً

Mme R. L. Devonshire : quatre - Vingts Mosquées du Caire P. 21.

(٢) Stanley Lane - Poole : The Story of Cairo p. 125

الفصل الثانى

بناء الجامع الأزهر

دخل الإسلام مصر فى سنة ٢٠ ﻫ (سنة ٦٤٠ م) ؛ فأخذ المسلمون فى بناء المساجد . ولم يكن الباعث على بنائها مقصورا على الأغراض الدينية وحدها ، كما كان الحال فى جامع عمرو ، بل كان ذلك راجعا الى أسباب سياسية واجتماعية أيضاً . وكانت تتخذ بعض المساجد حصونا : فكان يراعى فى بنائها أن تكون كبيرة الحجم لتسع عدداً كبيراً من الجند . وخير مثلٍ لذلك جامع ابن طولون ثالث المساجد الجامعة فى مصر .

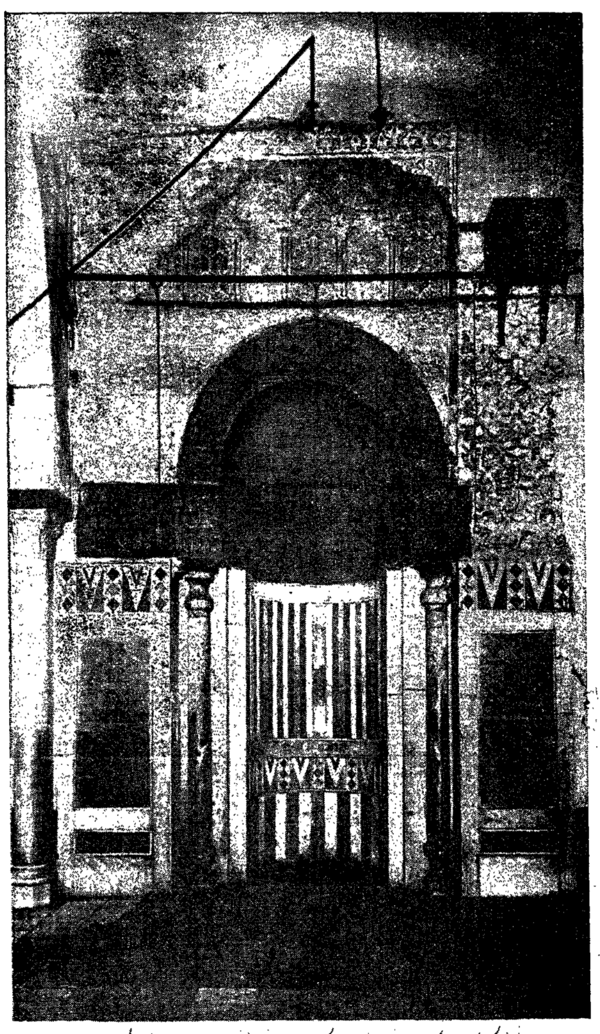
ولم تلبث هذه المساجد أن استخدمت فى الأغراض العلمية الى جانب الأغراض السياسية والدينية ، فكان يدرس فيها اللغة العربية وأصول الدين . وكان من بين تلك المساجد الجامع الأزهر ، الذى ذاعت شهرته وأصبح مركزا لدراسة الدين الإسلامى ، ليس فى مصر فحسب ، بل فى العالم الإسلامى أجمع .

كان جامع عمرو أقدم هذه الجوامع . فقد أسسه عمرو بن العاص حين رجع من الإسكندرية ، بعد تخطيط مدينة الفسطاط . وكان أول ما اتجه إليه نظره أن يبنى للمسلمين مسجدا يقيمون فيه شعائرهم الدينية ، وذلك جريا على السياسة التى سار عليها المسلمون . فقد كانوا يقيمون فى عاصمة كل أقليم يفتحونه مسجدا للجماعة .

بنى عمرو بن العاص جامعه المشهور سنة ٢١ ﻫ ، وهو أقدم جوامع مصر الاسلامية . ومن ثَمّ أطلق عليه « المسجد العتيق » و « تاج الجوامع » و « المسجد الجامع » (١) ويقع شمالى حصن بابليون الذى كانت تقيم فيه

---

(١) ابن دقماق ج ٤ ص ٥٩



الجامع الأزهر — صحن الجامع وبه القبلة الوسطى

حامية الروم وقت الفتح الاسلامى . وأول من زاد فى هذا الجامع مسلمة ابن مخلد الأنصارى (٤٧ — ٦٢ هـ) والى مصر من قِبَل مُعاوية ، فزخرف سقفه وجدرانه ووسعه من الجهتين الشرقية والشمالية . ولما وُلِّى عبد العزيز بن مروان (٦٥ — ٨٦ هـ) من قِبلِ أخيه عبد الملك بن مروان هدم هذا الجامع وبناه من جديد ووسعه من جميع جهاته(١) ؛ فظل المسجد عامرا يؤمه الناس للصلاة فى كل يوم . ويقول ستانلى لين پول إنه كانت لهذا المسجد أهمية دينية كبيرة عند المصريين ، ولا يزال أهل القاهرة يحرصون على إقامة صلاة الجمعة اليتيمة به الى اليوم (٢) . ولم يبق من البناء الأصلى شىء الآن ، فقد بناه عمرو باللبن . وإنما ترجع أهميته التاريخية إلى موضعه الذى بنى فيه أولا باعتباره الموضع الذى أقيم فيه أول مسجد فى مصر . (٣)

ولما انتقلت السيادة الى العباسيين أسس صالح بن على مدينة العسكر . وفى سنة ١٦٩ هـ (٧٨٥ م) بنى الفضل بن صالح مسجد العسكر فغدا من المساجد الجامعة بالديار المصرية ، وكان بجوار دار الامارة وسط هذه المدينة . ثم زاد فيه عبد الله بن طاهر والى مصر من قبل المأمون وظل قائما فى مكانه حتى خربت المدينة كلها ونقل انقاضها أمير الجيوش بدر الجمالى وزير الخليفة المستنصر بالله الفاطمى (٤) إلى مدينة القاهرة لتعميرها .

ثم جاءت الدولة الطولونية فبنى احمد بن طولون سنة ٢٦٣هـ مسجده المعروف باسمه على جبل يشكر فى الجهة الجنوبية من القاهرة الحالية والجهة

---

(١) المقريزى : الخطط جـ ١ ص ٢٤٦

(٢) Stanley Lane-Poole : The Story of Cairo P · 44

(٣) Mme R. L ·Devonshire : quatre-vingts Mosquées du Caire P · 10

(٤) المقريزى الخطط جزء ٢ ص ٢٦٤ — ٢٦٥

الشمالية من العسكر . ويقال ان الذى دعاه إلى بنائه هو ضيق مسجد العسكر بالمصلين لكثرة جند احمد بن طولون وخدمه وعبيده من جهة ثم التقرب الى الله تعالى من جهة أخرى . وقد جدّده المنصور لاجين سنة ٦٩٦هـ ، فإنه بعد أن قتل الملك الأشرف برسباى اختفى فى ذلك الجامع ونذر أن يعمره إذا منّ الله عليه بالخلاص . وقد وفى بنذره فاهتم بعمارته وأعاده الى ما كان عليه من البهاء والرواء ؛ ووقف عليه الأوقاف وقرر تدريس العلوم العقلية والنقلية فيـــه (١) .

وهذا الجامع هو أقدم آثار مصر الإسلاميه التى بقيت على حالها الأول.(٢) فقـد سقطت مبانى مدينة القطائع وزالت معالمها عدا هذا المسجد ، وذلك حين جاء محمد بن سليمان الكاتب قائد الخليفة العباسى المكتفى الى مصر ووضع النار فيها بأمر الخليفة . ويرجع السبب فى بقاء هذا الجامع حتى اليوم الى استعمال الجير والرماد والآجر الأحمر القوى النار فى بنائه . وقد أشير على ابن طولون باستعمال هذة المواد فى البناء حين قال لأصحابه : «أريد أن ابنى بناء إن احترقت مصر بقى ، وان غرقت بقى » . (٣)

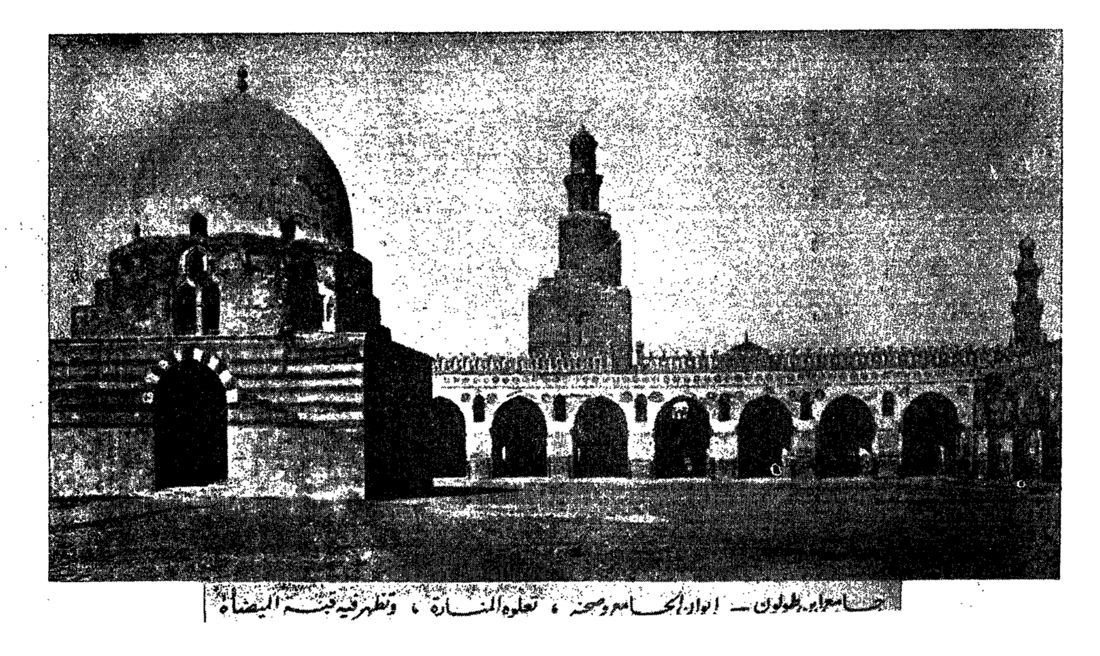
جاءت بعد ذلك الدولة الفاطمية ، وتم فتح مصر على يد جوهر الصقلى قائد المعز لدين الله سنة ٣٥٨ هـ وأسس مدينة القاهرة فى نفس الليله التى دخل فيها مدينة مصر (الفسطاط والعسكر) لتكون أشبه بمدينة حصينة ومعقلا له ولجنـده وأنصاره من المغاربة ولتقيه شر القرامطة . وكان المذهب السنى فى ذلك الوقت منتشرا فى مصر ، ولم ير جوهر ـ بما عرف عنه من الحزم وبعد النظر ـ أن يفاجىء السنيين فى مساجدهم بشعائر المذهب الفاطمى . نخص منها

---

(١) ابن دقاق : جـ ٤ ص ١٢٢ ـ ١٢٤

(٢) » » » » » »

(٣) المقريزى : الخطط جـ٢ ص ٢٦٧



جامع ابن طولون — ايوان الجامع وصحنه ، تعلوه المنارة ، وتظهر فيه قبة الميضأة

بالذكر تلك العبارة « السلام على الأئمة آباء أمير المؤمنين المعز لدين الله» التى كان يذكرها الفاطميون فى الخطبة ، حتى لا يثير جوهر حفيظة المصريين.

لذلك عوّل جوهر على تلافى الشر قبل وقوعه . فبنى مسجدا يتلقى فيه الناس عقائد المذهب الفاطمى . ومن ثم شرع فى بناء الجامع الازهر فى يوم السبت الرابع من شهر رمضان سنه ٣٥٩ هـ (سنة ٩٧٠م) . وتم بناؤه فى سنتين تقريبا ، وأقيمت الصلاة فيه لأول مرة فى اليوم السابع من شهر رمضان (سنة ٣٦١ هـ و ٢٢ يونيه سنة ٩٧٢ م) (١) .

***

كان الأزهر أول مسجد شيد فى مدينة القاهرة المعزية وأشهر جامع فى العالم الاسلامى ، وأعظم جامعة اسلامية تدرس فيها العلوم الدينية والعقلية الآن ، تقصده الطلاب من جميع البلاد الاسلامية لتلقى العلم فيه .(٢)

وقد اختلف المؤرخون فى تسمية هذا الجامع . فقال بعضهم انه كان يحيط به القصور الزاهرة التى بنيت عند انشاء مدينة القاهرة ، ولذا سمى بالأزهر . وقال آخرون انما سمى كذلك تفاؤلا بما سيكون له من الشأن العظيم والمكانة الكبرى بازدهار العلوم فيه . ويظهر لنا أن الفاطميين الذين ينتسبون إلى فاطمة بنت الرسول صلى الله عليه وسلم سمّوه الأزهر اشادة بذكر جدتهم فاطمة الزهراء .

يشتمل الأزهر على مكان مسقوف للصلاة يسمى مقصورة ، وآخر غير مسقوف يسمى صحنا ، وما إلى ذلك من الملحقات التى تتبع المساجد عادة

---

(١) المقريزى : الخطط ج ٢ ص ٢٧٣ ، القلقشندى ج ٣ ص ٣٦٤

Stanley Lane - Poole : The Story of Cairo, p. 128

(٢) Mme R . T . Devonshire : quatre - vingts Mosquées du Caire P . 11

G Migeon : Art Musulman, tome I. p. 41

من منارات ومغاطس وغيرها . وقد بنى فيه القائد جوهر مقصورة كبيرة بها ستة وسبعون عمودا من الرخام الجيد الأبيض اللون فى صفوف متحاذية . وفى سنة ١٦٧ هـ بنى الأمير عبد الرحمن كتخدا مقصورة ثانية بها خمسون عمودا من الرخام . وبذلك أصبح بهذا الجامع مقصورتان عدد أعمدتهما مائة وستة وعشرون عمودا . واذا أضيف الى هذا العدد الأعمدة الموضوعة بملحقات الجامع كان مجموعها ثلاثمائة وخمسة وسبعين عموداً . وترتفع المقصورة الجديدة نصف ذراع عن التى بناها القائد جوهر . وسقف المقصورتين من الخشب المتقن الصنع ، وهما متلاصقتان ، وفى كل منهما نوافذ لدخول النور والهواء . وأما صحن الجامع فهو مكان متسع غير مسقوف، مرصوف بالحجر ، يجلس فيه الطلبة فى الشتاء للتمتع بحرارة الشمس ، وينامون به فى فصل الصيف عند اشتداد الحر ، ويقيمون فيه الصلاة عند ازدحام المقصورتين . وهو محاط من جهاته الأربع ببوائك تقوم على أعمدة من الرخام ، وعلى حيطانه آيات قرآنية منقوشة بخط كوفى جميل .(١)

وقد أنشأ القائد جوهر بهذا الجامع محرابا بالمقصورة القديمة يسمى الآن القبلة القديمة ، ثم أقيمت به تسعة محاريب اخرى . ولم يبق من هذه المحاريب سوى ستة أشهرها اثنان أحدهما بالمقصورة القديمة ، والآخر بالمقصورة الجديدة . ولكل منهما إمام يخالف صاحبه فى المذهب الدينى .

وللجامع منبر واحد ، وهو من الخشب المخروط الجميل الصنع . وله خطيب خاص فى الجمع والأعياد . وقد نقل المنبر الاصلى الذى أنشأه القائد جوهر الى جامع الحاكم .

وقد أنشىء بالأزهر عند تأسيسه منارة واحدة ، ثم أصبح به فيما بعد خمس منارات يؤذن عليها فى أوقات الصلوات الخمس وفى ليالى رمضان والمواسم . وكانوا يعرفون أوقات الصلاة عن طريق الميقاتى ، ووظيفته التنبيه

---

(١) G. wiet : Précis d' Histoire Musulmane de L'Egypte p. 42



الجامع الأزهر — الباب الخارجي للجامع

على أوقات الصلوات . وكان يتبع أذان المنارات الأخرى بالقاهرة أذان الازهر . وكان الميقاتى يعرف الأوقات بالنظر فى المزولة التى لاتزال قائمة الى اليوم بأحد جدران صحن الأزهر .

وكان المعز يذهب الى الجامع الازهر فى يوم الجمعة فى موكب حافل لإقامة الصلاة . وقد سار على هذه السُّنّة من جاء من الخلفاء الفاطميين بعد المعز . وقد ذكر المقريزى(١) أن الخليفة العزيز الفاطمى هو أول من حوّل الازهر من مسجد تقام فيه الصلاة الى جامعة تدرس فيها العلوم ، كما كان أول من أجرى الارزاق على طلاب العلم فيه وبنى لهم المساكن للاقامة فيها .

---

(١) الخطط ج ١ ص ٢٧٣

الباب الخامس
حياة جوهر فى مصر بعد قدوم المعز اليها

الفصل الاول

قدوم المعز الى مصر

ظل جوهر يحكم مصر بنفسه أربع سنوات ، منذ فتحها سنة ٣٥٨ ﻫ حتى قدم اليها المعز سنة ٣٦٢ ﻫ (٩٧٢ م) (١) . وقد ذكر ابن خلكان (٢) ان جوهرا طالما كتب الى المعز يستدعيه للحضور الى مصر لتولى شؤونها بعد ان رأى أن مصر والشام والحجاز قد خضعت لسلطان الفاطميين وخطب للمعز على منابرها . فلما وجد المعز ان دعائم ملكه قد توطدت فى الشرق ، عزم على الرحيل الى مصر .

خرج المعز من المنصورية يوم الاثنين ٢١ شوال سنة ٣٦١ ﻫ (٥ أغسطس سنة ٩٧٢ م) ، يريد مصر . فوصل سردانية وأقام بها مدة حتى اجتمع اليه رجاله وأتباعه . وهناك عقد العهد لبلكين بن زيرى بن مناد الصنهاجى على افريقية (الأربعاء ٢٢ ذى القعدة سنة ٣٦١ ﻫ ، سبتمبر سنة ٩٧٢ م) . وأمر المعز أهل افريقية بطاعته والائتمار بأمره (٣) . ثم رحل عنها يوم الخميس ٥ صفر سنة ٣٦٢ ﻫ ، ولم يزل فى طريقه حتى وصل الى برقة

---

(١) ابن خلكان : ج١ ص ١٢٠

(٢) ابن خلكان ج ٢ ص ١٠٢

(٣) ابن خلكان : ج ٢ ص ١٠٨

ومنها الى مصر (١) . وقد دخل المعز الاسكندرية ، ممتط جواده (السبت ٢٣ شعبان سنة ٣٦٢ ﻫ (١٩ مايو سنة ٩٧٣ م) ، فى جمع كبير من رجالات دولته ، من بينهم أولاده واخوته وأعمامه ، ومعه جثث آبائه المهدى والقائم والمنصور (٢) فاستقبله أعيان البلاد ، وعلى رأسهم أبو الطاهر قاضى مصر . فجلس المعز عند المنارة وخطبهم خطبة طويلة ذكر فيها « أنه لم يرد دخول مصر لزيادة فى ملكه ولا لمال ، وانما أراد إقامة الحق والحج والجهاد ، وان يختم عمره بالأعمال الصالحة ، وأن يعمل ما أمر به جده صلى الله عليه وسلم . » ثم وعظهم وأطال فى الوعظ حتى بكى بعض الحاضرين . ثم خلع على القاضى وبعض من كان معه ، ثم انصرفوا بعد أن حملهم على دوابه . (٣)

رحل المعز من الاسكندرية فى أواخر شعبان سنة ٣٦٢ ﻫ ووصل الى الجيزة فى ٢ رمضان من هذه السنة . فخرج اليه القائد جوهر وترجل عند لقائه وقبل الأرض بين يديه . واجتمع به الوزير أبو الفضل جعفر بن الفرات . وقد أقام المعز بالجيزة ثلاثة أيام ، أخذ عسكره خلالها فى العبور بأمتعتهم الى ساحل مصر . وفى يوم الثلاثاء الخامس من شهر رمضان سنة ٣٦٢ ﻫ عبر المعز النيل ودخل القاهرة دون ان يمر على الفسطاط ، وكان الأهلون قد زينوها له بالزينات الباهرة ظناً منهم أنه سيبدأ بدخولها ، بينما يستعد أهل القاهرة للقائه (٤)

ولما وصل المعز الى القاهرة (الثلاثاء ٧ رمضان سنة ٣٦٢ ﻫ) ، دخل

---

(١) ابن خلكان : ج ٢ ص ١٠٢

(٢) G. Wiet : Précis d'Histoire Musulmene de l'Egypte p . 33
G. Wiet : Art Musulman, tome I. p.41

(٣) ابن خلكان : ج٢ ص ١٠٢

(٤) G. Migeon : Art Musulman, tome I. p.41

القصر الذى بناه له جوهر ، وخر ساجداً لله تعالى ، ثم صلى ركعتين فى إحدى ردهاته ، وصلى خلفه من كان معه . « وقد أصبحت مصر منذ ذلك الحين دار خلافة بعد أن كانت دار امارة » (١) ، وغدت القاهرة ـ بدل القيروان ـ مركز هذه الامبراطورية الشاسعة الأرجاء . على أن نقل المعز مقر خلافته من المهدية الى القاهرة قد أفقد الفاطميين إفريقية (تونس) (٢) . فإن بلكين شيخ صنهاجة من قبائل البربر سرعان ما أعلن استقلاله وأسس الدولة الزيرية فى سنة ٣٦٢ ﻫ . وحذا حذوه فى ذلك الحماديون فى سنة ٣٩٨ﻫ . وفى عهد المستنصر تم استقلال امراء شمال افريقية (سنة ٤٤٠ﻫ) ، وخرجت هذه البلاد نهائيا عن سلطان الفاطميين (٣)

أقام مع المعز فى القصر أولاده وحاشيته وخدمه وعبيده . وكان بالقصر كل ما يحتاج اليه الملوك من مال وعين (٤) وجوهر وحلى وفُرُش وأوان وثياب وسلاح . وكان جوهر يقيم فى ذلك القصر ، فلما علم بوصول المعز الى الجيزة تركه ولم يحمل معه شيئا من أثاث القصر الا ما كان عليه من الثياب ، ونزل فى داره بالقاهرة (٥) . وفى اليوم التالى لوصول المعز خرج أشراف مصر وقضاتها وعلماؤها ووجوهها لتهنئته والاحتفال بوصوله .

جلس المعز فى قصره فى الخامس عشر من شهر رمضان على السرير

---

(١) المقريزى : اتعاظ الحنفا ص ٨٩ .

Stanley Lane - Poole : The Mohammadan Dynasties, p. 39

(٢) Stanley Lane - Poole : The Mohammadan Dynasties ,P. 71

(٣) Stanley Lane - Poole : The Mohommadan Dynasties ,P.39

(٤) العين : مشترك لفظى يطلق على أشياء مختلفة . ولعل المقصود بها هنا النقد وكذا الدنانير المضروبة والغير المضروبة .

(٥) ابن خلكان . ج١ ص ١٢٠

الذهب الذى صنعه له جوهر فى الايوان الجديد، ثم اذن المعز بدخول الناس عليه . فدخل الأشراف ، ثم الأولياء ، فسائر وجوه المدينة ، وجوهر قائم بين يديه ، يقدم الناس قوما بعـــد قوم (١) . ثم قدم جوهر هديتـه الى مولاه المعز . وكانت ـ على ما ذكره المقريزى نقلا عن ابن زولاق ـ مائة وخمسين فرسا مسرجة ملجمة ، وكان من تلك السروج واللجم ما هو موشى بالذهب وما هو مرصع بالجواهـر ، وواحـد وثلاثون فيـه على بخاتى (٢) بالديباج (٣) والمناطق (٤) والفرش ، ومنها تسع نوق محملة بالحرير ، وثلاث وثلاثون بغلة ، منها سبعة مسرجة ملجمة ، ومائة وثلاثون بغلة للنقل ، وتسعون نجيبا (٥) ، وأربعة صناديق مشبكة يرى ما بداخلها من أوانى الذهب والفضة ، ومائة سيف محلى بالذهب والفضة . ودرجات من فضة مخرقة فيها جوهر ، وشاسية مرصعة فى غلاف . وتسعمائة سفط ، وتخت (٦) ، فيهـا الطرف وكل ما أعده جوهر لمـولاه المعز من ذخائر مصر . (٧)

ولما فرغ جوهر من تقديم هديته قام أبو جعفر بن عبيد الله الحسينى وقدم

---

(١) المقريزى : اتعاظ الحنفا ص ٩٠ ـ ٩١

(٢) البخت نوع من الابل

(٣) ثوب سداه ولحمته ابرسيم (حرير) ويقال هو معرب . ثم كثر حتى اشتقت العرب منه .

(٤) جمع منطق وهو مايشد به الوسط

(٥) النجيب هو الكريم (الأصيل) من الخيل

(٦) وعاء

(٧) المقريزى : الخطط ج ١ ص ٣٨٥ ـ ٣٨٦ ، اتعاظ الحنفا ص ٩١ ،
G. Migeon : Art Musulman I. p. 42

هديته الى المعزوهى احد عشر سفطاً من متاع تونة (١) وتنيس (٢) ودمياط (٣) وخيل وبغال . وقال : « كنت اشتهى ان يلبس منهـا المعز لدين الله ثوبا أو يتعمم بالعمامة التى فيها ، فما عمل الخليفة قط مثلها » (٤) .

وبعـد أن تقبل المعز ماقدم اليه من الهدايا والتحف أذن لجماعة المهنئين بالجلوس فى مجلسه ، وأمر باطلاق جميع من اعتقلهم جوهر من الاخشيديين والكافوريين وكانوا نحو الألف .

وفى عيـد الفطر ركب المعز الى مصـلى القاهرة الذى بناه جوهر فأقبـل عليه فى موكبه ، وجلس خلفه من الجهة اليمنى ابو جعفر مسلم العلوى وصلى المعز بالناس صلاة العيد صلاة تامة طويلة . فقرأ فى الركعة الأولى أم الـكتاب وهل أتاك حديث الغاشية ، ثم كبر بعد القراءة وأطال الركوع والسجود ، وكان القاضى النعمان بن محمد يبلغ عنه التكبير . ثم قرأ فى الركعة الثانية أم الـكتاب وسورة الضحى ، ثم كبر أيضا بعـد القراءة وهى صلاة جده على بن ابى طالب . وأطال الركوع والسجود فى الثانية ايضا . قال ابن زولاق قد سبحت

---

(١) تونة جزيرة قرب تنيس ودمياط .

(٢) تنيس جزيرة بين الفرما ودمياط .

(٣) اشتهرت هذه المدن فى ذلك الوقت بصناعة المنسوجات على اختلاف أنواعها حتى كان لها شهرة عالمية فى ذلك المضمار . فقد كان يضرب المثل بثياب تونة ، وكانت تصنع بها كسوة الـكعبة أحيانا . كما اشتهر أهل تنيس بعمل الثياب الملونة والفرش النادرة المثال ، وأهـل دمياط بصناعة الأقمشة القلمونية التى أخذت صناعتها عن بلاد اليونان ، وهى نوع من القماش ذو ألوان براقة تتلألأ اذا انـكسرت عليها أشعة الشمس . وقد ذكر ياقوت عند كلامه على دمياط وتنيس أن حاكة الثياب الرفيعة بهما كانوا من القبط ، وأن أهل دمياط كانوا يستأجرون غرفا فى قبوات على خليج دمياط لعمل الثياب المعروفة بالشرب .

(٤) المقريزى : اتعاظ الحنفا ص ٩١

خلفه فى كل ركعة وسجدة نيفا وثلاثين تسبيحة . وجهر المعز بسم الله الرحمن الرحيم فى كل سورة . ولما فرغ من الصلاة صعد المنبر ومعه القائد جوهر وعمار بن جعفر وشفيع صاحب المظلة . وخطب الناس ، وأبلغ فى خطابته حتى ابكاهم ثم انصرف فى عساكره (١) . ولما وصل الى قصره دعا الناس لتناول الطعام عنده ، وعاتب من تأخر منهم ، وتهدد من بلغه عنه صيام العيد .

وقد خلع المعز على جوهر فى ذلك العيد خلعة مذهبة ، وعمامة وقلده سيفا ، كما قدم اليه عشرين فرسا مسرجة ملجمة ومنحه خمسين ألف دينار ومائتى الف درهم . وقد منح المعز جوهراً هذه الهدية إعجاباً بما أصابه من النجاح فى فتوحه وتقديرا لما قدمه اليه جوهر من تلك الهدية الثمينة التى أتينا على وصفها .

ولما فرغ المعز من الاحتفال بعيد الفطر ركب الى المقس ، واشرف على اسطوله ، وقرأ عليه وعوذه ، وخلف عليه جوهرا والقاضى النعمان ، ثم عاد الى قصره . (٢) ومن هنا تتبين أن جوهرا كان لايزال يتمتع فى ذلك الوقت بشىء من النفوذ الذى كان يتمتع به قبل وصول المعز الى مصر .

***

ظلت مقاليد الأمور فى مصر بيد جوهر حتى قدم المعز فى سنة ٣٦٢ هـ . وقد استأثر المعز بكل ما كان يتمتع به جوهر من النفوذ . على أن جوهر قد بقى بجانب المعز يدله على أحوال البلاد ويشير عليه بما تتطلبه من وجوه الاصلاح .

ولم يذكر لنا التاريخ شيئاً يدل على أن المعز قد حفظ لذلك الفاتح العظيم ما كان له من الأيادى البيضاء على الدولة الفاطمية ، وما قام به من فتح مصر والشام وفلسطين وتثبيت دعائم الفاطميين فيها ونشر الدعوة لهم بها ، وصد

---

(١) المقريزى: اتعاظ الحنفا ص ٩١

(٢) المقريزى : اتعاظ الحنفا ص ٩١

غارات القرامطة عن مصر ، تلك الغارات التى كادت تقضى على الدولة الفاطمية الناشئة . وكل ماحفظه لنا التاريخ ان المعز — على الرغم مما حباه به من العطف وأولاه من الثقة وحسن التقدير — قد أقصاه عن مناصب الدولة الكبيرة كالخراج والحسبة والسواحل والأعشار والجوالى والاحباس والمواريث والشرطتين وغيرها ، وقلدها يعقوب بن كلس وعسلوج ابن الحسن .

وهكذا نرى جوهراً يتوارى قليلا قليلا عن مسرح السياسة المصرية ولم يعد الى الظهور إلا أواخر سنة ٣٦٤ ﻫ ، حين تفاقم خطر افتكين والحسن ابن أحمد القرمطى واستعصى على المعز وقواد جيشه كبح جماحهما ، فلجأ إلى جوهر وولاه قيادة جيوشه . ولم يكن جوهر فى تلك المدة أقل إخلاصاً وولاء لمولاه المعز ثم لابنه العزيز من بعده عما كان عليه من قبل ، وكان ذلك آخر عهد جوهر بالشؤون العامة فى مصر .

وهنا نتساءل عن السبب فى موقف المعز إزاء هذا القائد العظيم والفاتح الكبير وإقصائه إياه عن المناصب الهامة فى تلك البلاد التى تم فتحها على يده . ولعل المعز قد سلك مع جوهر ماسلكه غيره من الخلفاء قبله مع عظماء قوادهم من مؤسسى الدول وذوى الشخصيات البارزة . وذلك لما كانوا يخشونه على نفوذهم ان ينتقل إلى هؤلاء . ولن تعوزنا المثل للتدليل على صحة هذا القول . فقد قتل أبو جعفر المنصور أبا مسلم الخراسانى الذى قامت على أكتافه الدولة العباسية ، وكذلك فتك عبيد الله المهدى بأبى عبد الله الشيعى بعد ان انتشرت على يده الدعوة الشيعية وتأسست الدولة الفاطمية فى بلاد المغرب . على أن جوهرا — وان جازاه المعز على فتوحه جزاء سنمار — فقد كان أحسن حالا من غيره من القواد الفاتحين ، كأبى مسلم وأبى عبد الله الشيعى .

الفصل الثالى

تثبيت سلطان الفاطميين فى سورية

قد ذكرنا كيف تفاقم خطر افتكين والقرامطة فى الشام واستعصى أمرهما على الخليفة المعز. والآن نبين كيف تم القضاء على افتكين والحسن زعيم القرامطة، وكيف عادت بلاد الشام الى سلطان الفاطميين.

توفى المعز فى ربيع الآخر سنة ٣٦٥ ﻫ (سنة ٩٧٥ م) وتولى الخلافة من بعده ابنه العزيز. فكتب الى افتكين يستميله إليه ويعده حسن المكافأة اذا جلا عن دمشق. فرد عليه افتكين برد جاف جاء فيه «هذا بلد أخذته بالسيف وما أدين فيه لأحد بطاعة ولا أقبل منه أمرا» (١)

وقد استاء العزيز من ذلك الكتاب، وحنق على افتكين واستشار وزيره يعقوب بن كلس فى الأمر، فأشار عليه بتولية جوهر قيادة جيش يزحف على دمشق ويهاجم افتكين لأخراجه منها عنوة. فوجد العزيز فى جوهر رجل الساعة الذى يعتمد عليه ويركن إليه فى استقرار الأمور فى بلاد الشام وتثبيت الفتح الفاطمى بها، كما اعتمد عليه المعز فى فتح مصر بعد أن استعصى على غيره من الخلفاء والقواد. وكان جوهر عند ظن العزيز به.

سار جوهر سنة ٣٦٦ على رأس جيش عظيم لقتال افتكين والقرامطة. فلما علم القرامطة بذلك وهم فى الرملة فروا الى الاحساء. فدخلها جوهر واحتلها.

ولما علم افتكين بمسير جوهر الى دمشق واحتلاله الرملة، استثار حماس أهل دمشق بتلك الخطبة التى ننقلها بنصها عن ابن القلانسى (١): «قد علمتم انى لم أتوسطكم، وأتولى تدبيركم الا عن رأيكم ومرادكم، وقد طلبنى

---

(١) ذيل تاريخ دمشق ص ١٥ ـ ١٦

من هذا السلطان مالا طاقة لى به . وأنا منصرف عنكم وداخل الى بلاد الروم ، وعامل على طلب موضع أكون فيه ، واستمد ما أحتاج إليه منه ، لئلا يلحقكم بقصد من يقصدكم . مايتقل به الوطأة عليكم ، وتصل به المضرة إليكم » .

ويظهر أن افتكين قد أفلح فى سياسته . فقد جدد أهل الشام ثقتهم به . يدل على ذلك ماجاء فى ردهم على خطبته من تلك العبارة « أما اخترناك لسياستنا ورياستنا ، على أن تمكنك من تركنا ومفارقتنا أو نألوك جهداً من نفوسنا ومساعدتنا ؟ ونفوسنا دونك وبين يديك فى المدافعة عنك » .

وكان بيد جوهر أمان من مولاه العزيز لافتكين ، وخاتما . ودستا من ثيابه ، وكتابا بالعفو عنه لما فرط منه . فلما وصل جوهر إلى الرملة كتب الى افتكين فى لين ورفق ، وذكر له ما كتبه له العزيز من الأمان وما أعده له من الهدايا ، وأشار عليه بترك الفتنة حتى يعود الأمن إلى نصابه . فكتب إليه افتكين يشكر له حسن سعيه لدى العزيز ، واعتذر بعدم قبول أهل دمشق ماجاء فى كتابه . ثم سار افتكين من عكاء الى طبرية حيث انضم الى القرامطة واستعد للقاء جوهر وجمع الأقوات من بلاد حوران والبثينة ، ثم دخل دمشق وتحصن فيها .

ترك جوهر دمشق فى ٢٢ ذى الحجة سنة ٣٦٦ ﻫ فبنى سورا يضم عسكره وحفر خندقا كبيرا . ثم جمع أفتكين الجند للقتال ، ووقعت بينه وبين جوهر حروب طويلة دارت فيها الدائرة على أفتكين فى ١١ ربيع الأول سنة ٣٦٦ ﻫ ، رغم ما أبداه من شجاعة نادرة كانت موضع إعجاب أهل دمشق . وقد عرض عليه أهل الشام أن يكتب الى الحسن القرمطى يطلب منه السير اليه ومعاونته على قتال المغاربة . فلبى الحسن طلب أفتكين وسار الى دمشق . ولا شك أن جوهرا لم ينس مصير جعفر فى حربه مع القرامطة سنة ٣٦٠ ﻫ . فطلب جوهر الصلح على أن يجلو عن دمشق ، ولا سيما حين رأى أن

موارده قد نضبت وأن المؤونة قد أعوزته ، وهلك معظم جنده . وهـذا يفسر لنا قوة القرامطة ونفوذهم ونظامهم فى الحروب ، حتى إن مجرد نبأ سيرهم كان كافيا لتراجع قائد عظيم كجوهر واسراعه الى طلب الصلح .

أجاب أفتكين جوهراً الى طلبه . فرحل هـذا عن دمشق فى ٣ جمادى الاولى سنة ٣٦٦ هـ ، وجد فى المسير لاقتراب القرامطة منها ، ثم ذهب الى طبرية . فلما بلغ ذلك الحسن بن أحمد زعيم القرامطة سار اليـه ، بعـد أن رحل جوهر عنهـا الى الرملة . فبعث الحسن سرية لقتاله ووقعت بين الفريقين موقعة قتل فيها كثيرمن العرب . ثم ذهب اليه الحسن وتبعه أفتكين لقتال جوهر (١) . وانضم اليهما من أهل الشام أكثر من خمسين ألفاً ، ونزلوا بنهر الطواحين على بعد ثلاثة فراسخ من دمشق ؛ وكان المورد الوحيد للماء فى هذه الناحية .

فلما رأى جوهر أن افتكين قد أخذ عليه الماء ، وأنه لم يكن أمامه إلا ماء الأمطار التى كان يجمعها فى الصهاريج مما لا يكفى جنده الكثيف ، كتب الى العزيز يخبره أنه لا يستطيع البقاء فى هـذا المكان وأنه لا قِبَل له بمقاومة جيوش افتكين والقرامطة ، وطلب اليه أن يأذن له بالتوجه الى عسقلان اذا دعت الحال . فأذن له العزيز بذلك ، فأدلج جوهر اليها ووصل اليها فى آخر الليل . فتبعه افتكين والحسن القرمطى ، وحاصراه فيهـا ، حتى ندرت المؤن ،

---

(١) ذكر المقريزى : (الخطط ج ٢ ص ٩) أن الحسن القرمطى توفى بالرملة سنة ٣٦٦ هـ وقام بأمر القرامطة من بعد ابن عمه جعفر ، فأفسد علاقات المودة بين أفتـكين والقرامطة . بينما يقول ابن القلانسى إن الحسن ظل يناصب الفاطميين العداء ويثير القلاقل والفتن فى سورية حتى سنة ٣٦٨ هـ ، حيث هرب من ميدان القتال بعد أن هزمه العزيز . ونحن نرجح ما ذكره ابن القلانسى ؛ فقد نصب نفسه لجمع تاريخ دمشق دون غيرها من البلدان . هذا الى أنه قد سبق المقريزى بنحو ثلاثة قرون ؛ فقد توفى سنة ٥٥٥ هـ ، بينما توفى المقريزى سنة ٨٤٥ هـ .

وعزت الأقوات فارتفعت الأسعار ونزل بالأهلين ضيق شديد . وكان الوقت شتاء لا يسهل معه حمل المؤن الى جوهر فى البحر . واشتدت الحال حتى أكل المغاربة الدواب الميتة ، وابتاعوا الخبز كل خمسة أرطال شامية بدينار معزى .(١)

ولاشك أنه كان لشجاعة جوهر وبُعد نظره الفضل فى الخلاص من هـذا المأزق الحرج ، فى الوقت الذى كادت جيوشه تقع فريسة لجيوش افتكين والحسن القرمطى . فقد عمل على القضاء على ذلك التحالف المتين الذى كان يربط القرامطة بأفتكين والذى كان الغرض الأول منه القضاء على سلطان الفاطميين فى بلاد الشام وانتزاعها من أيديهم .

أراد جوهر أن يصل باللين والدهاء ماعجز عن الوصول اليه عن طريق الحرب والقتال. فلا عجب إذا رأيناه يكتب الى افتكين يطلب اليه المهادنة واحلال الوئام والصفاء محل المشاحنة والبغضاء ، ثم يبعث اليه الرسل يطلبون منه الاجتماع به . حتى إذا ماتم هـذا الاجتماع رأينا جوهراً يصل الى غايته بفضل ما وهبه الله من الدهاء والحزم. وقد مهر جوهر فى هذه السياسة مهارة كبيرة . فأتى افتكين من ناحية الدين وطلب اليه حقن دماء المسلمين والعمل على اخماد نار الفتنة ، بينما كان يعمل فى الوقت نفسه على التفرقة بين افتكين والحسن القرمطى . حتى اذا ما نجح بعض النجاح فى فصم عرى التحالف القائم بينهما ، استطاع فى النهاية أن يقضى عليهما جميعا .

وقد ذكر ابن القلانسى (٢) أن جوهراً قال لأفتكين حين اجتمع به : « قدعلمت مايجمعنى وإياك من حرمة الاسلام وحرمة الدين . وهذه فتنة قد طالت ، وأريقت فيها الدماء ، ونحن المأخوذون بها عند الله . وقد دعوتك

---

(١) ابن القلانسى : ذيل تاريخ دمشق ص ١٦ ـ ١٧

(٢) ذيل تاريخ دمشق ص ١٧

الى الصلح والموادعة والدخول فى السلم والطاعة ، وبذلت لك كل اقتراح وإرادة وإحسان وولاية . فأبيت الا القبول ممن يشب نار الفتنة ويستر عنك وجه النصيحة . فراقب الله تعالى وراجع نفسك ، وغلب رأيك على هوى غيرك » . فأجابه أفتكين : « أنا والله واثق بك وبصحة الرأى والمشورة منك . لكننى غير متمكن مما تدعونى اليه ، ولا يرضى القرمطى بدخوله فيه معى » . فرد جوهر عليه : « إذا كان الرأى والأمر على ذلك ، فانى أصدقك على أمرى ، تعويلا على الأمانة وما أجده من الفتوة عندك . فقد ضاق الأمر وامتنع الصبر ، وأريد أن تمن علىّ بنفسى وبهؤلاء المسلمين الذين معى وعندى ، وتذم لى لأمضى وأعود الى صاحبى شاكراً . وتكون قد جمعت بين حقن الدماء واصطناع المعروف ، وعقدت علىّ وعلى صاحبى منة تحسن الأحدوثة فيها ، وربما أملت المقابلة لك عنها » . فقال أفتكين : « افعل وأمنّ على أن أعلق سيفى ورمح الحسن بن أحمد على باب عسقلان ، ونخرج أنت وأصحابك من تحتها » . فرضى جوهر بذلك وتعاهدا ، وأخذ خَتْم أفتكين رهينة على الوفاء بذلك . وافترق القائدان فعاد أفتكين الى عسكره ، ورجع جوهر الى عسقلان ، ثم أرسل جوهر الى أفتكين الهدايا والطرف .

وقد بعث أفتكين الى الحسن القرمطى يعلمه بما كان بينه وبين جوهر . فذهب الحسن اليه وقال له : « لقد أخطأت فيما فعلته وبذلته . وجوهر هذا ذو رأى وحزم ودهاء ومكر ، وقد استقالك بما عقده معك . وسيرجع الى صاحبه ويحمله على قصدنا ، ثم لا يكون لنا به طاقة ، فيأخذنا . ومن الصواب أن ترجع عن ذلك ، حتى يهلك هو وأصحابه جوعا ، ونأخذهم بالسيف » . فتمسك أفتكين بما عاهد جوهراً عليه وقال : « قد عاهدته وحلفت له ، وما استجيز الغدر به » . وقد علق السيف والرمح ، فخرج جوهر وأصحابه من تحتهما(١) .

---

(١) ابن القلانسى ذيل تاريخ دمشق ص ١٧ — ١٨

ولا شك أن جوهراً لم يكن يجهل المثل المأثور « الغاية تبرر الواسطة » . فقد رضى أن يَمُرّ هو وجنده تحت سيف أفتكين ورمح الحسن القرمطى ، فى الوقت الذى كان يعلم فيه أن ذلك الحل فيه شىء غير قليل من المذلة والمهانة بالنسبة اليه والى الفاطميين . بيد أن جوهراً كان يزن عواقب الأمور ويعرف كيف يتلافى الخطر قبل وقوعه ، ومن ثم استطاع أن يخرج من هذه الحروب سالماً ظافراً .

على أن جوهراً انما قصد من ذلك أن يكسب الوقت ، حتى اذ ما أتيحت له الفرصة ضرب أفتكين والقرامطة جميعاً . ولم يكن الحسن القرمطى يغفل عن هذه الحقيقة حين أخبره أفتكين بما تم بينه وبين جوهر ، تلك الحقيقة التى نتبينها من قول القرمطى : « وجوهر هذا ذوى رأى وحزم ودهاء ومكر ، وقد استقلك بما عقده معك وسيرجع الى صاحبه ، ويحمله على قصدنا ، ثم لا يكون لنا به طاقة » . والفضل ما شهدت به الأعداء .

وصل جوهر الى مصر ودخل على العزيز بالله ، وشرح له حقيقة الحال فى بلاد الشام . واستفحال أمر أفتكين ومن معه . فقال له « ما الرأى ؟ » قال : « ان كنت تريدهم ، فاخرج بنفسك اليهم وإلا فانهم واردون على أثرى » . فأمر العزيز باعداد العدة ، وخرج على رأس جيش كبير مزود بالمؤن والذخائر ، وجوهر على مقدمته .

فلما علم أفتكين والحسن القرمطى بما عقد العزيز العزم عليه ، عادا الى الرملة حيث تلاقى الجيشان ، وحمى وطيس القتال (١) ، « وجال أفتكين بين الصفين يكر ويحمل ويطعن ويضرب » . فقال العزيز لجوهر « أرنى أفتكين » فأشار اليه « وهو يطعن تارة بالرمح ويضرب أخرى بالسيف ، والناس يتحامونه ويتقونه » . فأعجب العزيز ما رأى من فروسيته وشجاعته . ثم وقف العزيز ، وأنفذ اليه رجلا من عنده يقال له نميرة ، وقال له : قل

(١) المقريزى : الخطط ج ٢ ص ٢٨١

« يا أفتكين أنا العزيز وقد أزعجتنى عن سرير ملكى ، واخرجتنى لمباشرة الحرب بنفسى ، وأنا مسامحك بجميع ذلك ، وصافح لك عنه ؛ فاترك ما أنت عليه ولذ بالعفو منى . فلك عهد الله وميثاقه ، انى أؤمنك وأصطفيك ، وأنوه باسمك . . . ، وأهب لك الشام وأتركه فى يدك » . (١)

مضى نميرة الى أفتكين وبلغه رسالة العزيز . فخرج أفتكين بحيث يراه الناس ، وترجل ، وقبّل الأرض مراراً ومرّغ خديه عليها معفراً وقال : « قل لأمير المؤمنين لو تقدم هذا القول منك لسارعت اليه ، وأطعت أمرك ؛ فأما الآن فليس الا ماترى » . وعاد نميرة ونقل الى العزيز ماسمع ، فقال له : « ارجع اليه وقل له يقرب مى ، بحيث أراه ويرانى . فان استحققت أن يضرب بالسيف فليفعل » . فمضى نميرة وأبلغه ذلك فقال : « ما كنت الذى أشاهد طلعة أمير المؤمنين وأنابذه الحرب ، وقد خرج الأمر عن يدى » . ثم حمل على ميسره الفاطميين ، فهزمها وقتل كثيراً من رجالها . وشاهد ذلك العزيز بعينى رأسه فحمل بميمنة جيشه والمظلة على رأسه ، فهزم أفتكين والقرمطى فى يوم الخميس ٢٣ المحرم سنة ٣٦٨ ه وأعمل السيف فى جيشهما وقتل من جندهما نحو عشرين ألف رجل . وفر الحسن القرمطى هارباً راضيا من الغنيمة بالاياب .

وبذلك قضى العزيز على رأس تلك الفتنه بعد أن كادت نقوض دعائم الدولة الفاطمية الفتية . وفر أفتكين على فرس له ، فقبض عليه بعض العرب بعد أن بذل العزيز لمن يجىء به مائة الف دينار ، وأرسلوه إلى العزيز ، فأمر أن يُشَهّر به فطيف على جمل « فأخذ الناس يلطمون ، ويهزون لحيته ، حتى رأى فى نفسه العبر » .

سار العزيز ومن معه من الأسرى إلى القاهرة . فاحسن الخليفة اليهم ،

---

(٢) ابن القلانسى ، ذيل تاريخ دمشق ص ١٨

وأمنّهم وكساهم ، وأسند أليهم الأعمال التى كانوا يلونها أيام أفتكين . أما أفتكين فقد خرج جنود الفاطميين لاستقباله ، ولم يشك أحد فى أنه مقتول لا محالة.

وهنا تظهر صفات العزيز النادرة ، وحبه للعفو عند المقدرة مع رجل دوّخ الفاطميين وكاد يقضى على دولتهم وهى فى عنفوان قوتها وكامل فتوتها . على أنه كان لجوهر أثر كبير فى ذلك العفو بالرغم مما أنزله أفتكين به وبجنده ، فطالما عمل على تلطيف مزاج مولاه العزيز وتهدئة نفسه الثائرة ضد ذلك العدو الذى أقلق باله وعكر صفو حياته وجعل دولته قاب قوسين أو أدنى من الزوال .

ويحدثنا ابن القلانسى أن أفتكين لما دخل على العزيز فى سرادقه ترجل عن دابته وقبل الأرض بين يديه . وحُمِل إلى دست قد نصب له ليجلس عليه . فلم يكن من أفتكين ، ازاء الحفاوة به وبرجاله ، الا أن رمى بنفسه إلى الأرض وألقى ما على رأسه وبكى بكاءاً شديدا سمع الحاضرون نشيجه وقال : « ما استحققت الابقاء على ، فضلا عن العفو الكريم والاحسان الجسيم . . . » . وامتنع من الجلوس فى الدست وقعد بين يدى العزيز . وقد ألبسه جوهر على أثر وصوله من ملابس العزيز وهدأ روعه . فجدد الدعاء وتقبيل الأرض وشكر جوهرا على ما أظهره نحوه من كرم ونبل .

وقد بالغ العزيز فى إكرام أفتكين ، فأسكنه داراً فسيحة ، وأغدق عليه صلاته وعطاياه . وظل أفتكين متمتعا بنعم العزيز حتى مات فى سنة ٣٧٢ ﻫ . وقد اتهم يعقوب بن كلس وزير العزيز بقتله بالسم لترفع أفتكين عنه ، فأمر به العزيز فحبسه مدة حنقا منه عليه ثم أطلقه .

وهكذا توطد سلطان الفاطميين فى سورية ، فأصبحت ولاية فاطمية حاضرتها دمشق . وظلت على ذلك إلى أواخر عهد الدولة الفاطمية ، حيث استقل محمود نور الدين بن زنكى بدمشق واستولى الصليبيون على معظم أرجاء فلسطين ، ثم أصبحت بعد ذلك جزءا من أملاك الدولة الأيوبية .

خاتمة القول فى جوهر

الى هنا انتهى بنا البحث فى حياة جوهر ، ذلك الكاتب الكبير والقائد المحنك والسياسى الخطير . وقد اختلف علماء الاجتماع فى عظماء الرجال وذهبوا فيهم مذاهب شتى . فمنهم من يرى ان الرجل العظيم هو الذى يخلق الظروف ويرغم الحوادث على السير طوع ارادته ، ويضطرها الى المضى فى الطريق الذى يشقه لها ؛ ومنهم من يرى ان الرجل العظيم هو ابن الساعة ووليد الظروف ، تخلقه الأيام وتنشئه الحوادث وتهىء له من الفرص ما لا تهىء لغيره وتخلع عليه من مظاهر العظمة ما تضن به على سواه .

وقد اجتمع فى جوهر الرأيان جميعاً . فاننا لو نظرنا نظرة اجمالية الى حياة هـذا القائد رأينا أن عناصر عظمته هى مزيج من الحظ المؤاتى والكفاءة الشخصية النادرة .

ولا غرو فقد كان لجوهر من المواهب ، التى طالما أملت إرادتها على الأيام وفرضت رأيها على الحوادث ، ما يجعل منه قائدا موفقاً وسياسياً حكيما . الا أن هـذا وحده لا يكفى ، لو لم تتح له الظروف الاتصال بالمعز وهو لا يزال ببلاد المغرب ، فيُوليه ثقته ويُوَلّيه امرة جنده وقيادة جيشه لاتمام فتح ما بقى من بلاد المغرب واخضاعها لسلطان الفاطميين . وهنا تظهر مواهبه النادرة وقوة شكيمته . فقد أخضع بلاد المغرب كلها لسلطان المعز فى أقل من سنة . وهكذا تكاتفت ظروف الرجل ومواهبه فى وضع الحجر الأساسى لمجده .

ولم تقف ثقة المعز بجوهر عند هـذا الحد ، فقد جعله على رأس الحملة التى وجهها لفتح مصر ونشر الدعوة الشيعية بالمشرق ، بعد أن فشل فى ذلك من سبقه من القواد الفاطميين . على أن حظ جوهر فى مصر لم يكن أقل منه فى بلاد المغرب . فقد سادتها الفوضى وعم فيها الاضطراب عقب وفاة

كافور . وبلغت الدولة العباسية درجة كبيرة من الضعف والانحلال عجزت معها عن ارسال الجنود لصد الأعداء عنها كما فعلت من قبل .

وعلى الرغم من وقوف المعز على حقيقة الحال فى مصر وما كانت عليه من ضعف ، فقد رأى أن فتحها يحتاج الى عقل راجح وقيادة حكيمة . فاختار جوهراً بعد أن خبره كاتباً ووزيراً وقائداً تفتح له البلدان المنيعة فى بلاد المغرب أبوابها . وكان جوهر عند ظن الخليفة به ، فتم على يده فتح مصر واتخذها الفاطميون قاعدة لخلافتهم . وكان لمهارة جوهر وحُسْن سياسته أثر كبير فى استتباب الأمن وتأليف قلوب الأهلين بالرغم من بغضهم للمذهب الشيعى ، مذهب الفاطميين .

وقد نفذ جوهر السياسة الفاطمية التى كانت ترمى الى اتخاذ مصر جسراً يعبر عليه الفاطميون الى المشرق لتأسيس خلافة فاطمية شاسعة الأرجاء . وكان اختيار المعز جوهرا لتنفيذ تلك السياسة اختيارا موفقا . فان سلطة الفاطميين لم تتوطد فى بلاد الشام وفلسطين حتى خرج اليهم جوهر بنفسه بعد أن أخفق فى ذلك جعفر بن فلاح ، وانفض الناس من حوله ، وتخاذل عنه الجند وخر صريعاً فى ميدان القتال ، لما كان يعوزه من الحزم وبعد النظر وحسن السياسة ، تلك الصفات التى امتاز بها جوهر .

وقد ساعد الحظ جوهرا ، فقضى على القرامطة وردهم عن مصر مهزومين مدحورين ؛ وطالما تاقوا للاغارة عليها وفتحها ، كما أغاروا على غيرها من بلدان المشرق . ولولا قوة جوهر ومهارته الحربية لتم للقرامطة ماأرادوا وأزالوا سلطان الفاطميين فى مصر ، ولما تتوطدت دعائمه فيها .

ولا زالت آثار جوهر فى مصر تنطق بأيادى هذا القائد العظيم والفاتح الكبير . فهو منشىء القاهرة ، تلك العاصمة التى لم تلبث أن بذت غيرها من العواصم الاسلامية ، وأصبحت منار الحضارة الاسلامية التى أنبسط نورها على الآفاق . فقدفاقت القاهرة بغداد عاصمة الخلافة العباسية وقرطبة حاضرة

الأمويين فى الأندلس ، وأصبحت مركز العلوم والفنون والآداب ، وكعبة العلماء ، ومحط رحال الشعراء والكتّاب . ناهيك ما ذكره ناصرى خسرو ،ذلك الرحالة الفارسى الذى طاف جميع البلدان الشرقية وشاهد بنفسه ماوصلت اليه من المدنية والحضارة و وقف على مابلغته من العلم والفن ، فقد قال فى كتابه «سفر نامه » ان القاهرة قد سبقت فى عهد الفاطميين هذه البلاد جميعا فى كل ناحية من نواحى الحياة .

ومما يدل على حنكة جوهر وعُلو كعبه فى السياسة ، أنه لم يلجأ الى وسائل الشدة والعنف فى نشر المذهب الفاطمى وانما لجأ الى الوسائل السلمية . فاعتمد على المساجد التى اتخذها أشبه بمدارس يتلقى فيها الأهالى تعاليم هذا المذهب ، دون أن يفرض على أحد اعتناقه . فقد انشأ الجامع الأزهر ليكون مركزاً لتدريس تعاليم المذهب الفاطمى حتى لا يضايق المصريين السنيين فى شعورهم الدينى فى المساجد الاخرى . وعلى الرغم من دراسة هذا المذهب فيماعدا الازهر من المساجد ، فان التاريخ لم يذكر لنا ان الناس كانوا يساقون لتلقى تعاليم هذا المذهب كرها . بيد أن هذا التسامح لم يصرف جوهرا عن الغرض الأول من سياسة الفاطميين ، وهو تعميم هذا المذهب بين المصريين . فقد لجأ فى جذبهم اليه إلى الوسائل المادية ، وذلك باسناد مناصب الدولة الهامة الى معتنقى هذا المذهب مصريين كانوا أو مغاربة .

وكان جوهر أحسن مثل للحاكم العادل ، فقد كان يجلس للمظالم بنفسه ، فيقضى بين الناس بالعدل ويرد الحقوق إلى أصحابها ، ويضرب على أيدى المعتدين والعابثين بالنظام والأمن ، ولوكانوا من خاصته وخلصائه . فقد ضرب على أيدى الجند المغاربة ومنعهم من التعدى على الأهلين ، حتى كان يعاقب المعتدين منهم بالقتل جزاء لهم وردعا لغيرهم . فكان مثله فى ذلك مثل عمرو بن العاص وأحمد بن طولون ومحمد بن طغج الاخشيد وصلاح الدين الايوبى وغيرهم من خيرة الأمراء وكبار الساسة الذين تولوا الحكم فى مصر فى العصر الاسلامى .

ولا شك أن جوهرا يعتبر مؤسس الحضارة الفاطمية فى مصر خاصة والشرق عامة . وكان مولاه المعز يثق به ثقة لاحد لها . فقد ترك له ولاية مصر أربع سنوات لم يفكر خلالها فى الحضور إليها وتسلم مقاليد الحكم فيها ، حتى ألح عليه جوهر فى ذلك ، مما يدل على أن المعز كان يرى فى جوهر الجدارة بالاضطلاع بحكم مصر وإدارة شئونها .

على أن نفوذ جوهر لم يلبث ان تضاءل على أثر قدوم المعز الى مصر ، فأفل نجمه ودالت دولته . وهذا أمر طبيعى . فقد عرف المصريون جوهرا وأحبوه ودانوا له بالطاعة وأصبح ذا شخصية بارزة ونفوذ قوى . فلو أشركه معه المعز فى حكم هذه البلاد لسقطت هيبة الخليفة الفاطمى وتلاشى سلطانه . لذلك لانعجب اذا صرف جوهر عن الأعمال العامة عقب وصول المعز ، فلم يعد الى الظهور الا فى فتوح سورية فى عهد العزيز حين اشتد خطر القرامطة وأفتكين . وكان ذلك آخر عهد جوهر بأعمال الدولة . فانه بعد أن وطد سلطان الفاطميين فى سورية وعاد الى مصر سنة ٣٦٨ هـ ، أهمله العزيز كما أهمله المعز من قبل ، فلزم داره وأصبح نسيا منسيا .

وقد أحفظ جوهراً إهمال المعز والعزيز له ونال من نفسه عدم تقديرهما ما كان له من الأيادى فى توطيد سلطان الفاطميين . فقد ذكر المقريزى (١) أن منجوتكين (٢) التركى خرج من قصر العزيز سنة ٣٨١ هـ وهو يمتط جواده ، وفى حاشيته القائد جوهر وابن عمار وغيرهما من رجالات الدولة

---

(١) الخطط ج ١ ص ٣٧٩

(٢) حدث جوهر أباعمار انه لما وصل المعز إلى مصر عرض عليه الأسرى ، وكان من بينهم منجوتكين هذا ، وكان لايزال غلاما . فلما رآه المعز نظر اليه وتأمله . فلما انتهى جوهر من عرض الأسرى قال للمعز « يامولانا ! قد فعلت لما رأيت هذا التركى مالم تفعله مع من تقدمه . » فقال « ياجوهر ! سوف ترى أنه يكون لبعض ولدنا غلام من هذ الجنس تتم على يده فتوحات عظيمة » . ثم قال جوهر لابن عمار : « وأنا أظن أن ذاك الغلام هو الذى كان يعنيه مولانا المعز »

مشاة . وكانت يد جوهر في يد ابن عمار . فتنهد ابن عمار وزفر زفرة كاد ينشق لها صدره وقال : « لاحول ولا قوة إلا بالله ! » فنزع جوهر يده منه وقال . « قد كنت عندي يا أبا عمار أثبت من هذا . . . . . . لكل زمان دولة ورجال . أنريد نحن أن نأخذ دولتنا ودولة غيرنا ؟ لقد أرجل لى مولانا المعز لما سرت الى مصر أولاده واخوته وولى عهده وسائر أهل دولته ، فتعجب الناس من ذلك . وها أنا اليوم أمشى راجلا بين يدى منجوتكين . أعزونا وأعزوا بنا غيرنا . وبعد هذا أقول اللهم قرب أجلى وموتى ، فقد أنفت على الثمانين » .

وفى تلك السنة اعتل جوهر فعاده العزيز بالله ، وأرسل إليه خمسة آلاف دينار ، ثم بعث إليه الأمير منصور بن العزيز خمسة آلاف دينار أخرى .

وتوفى جوهر فى يوم الاثنين ٢٣ ذى القعدة سنة ٣٨١ ﻫ . فبعث إليه بالحنوط والكفن الخليفة العزيز وابنه المنصور أبو على ، الذى ولى الخلافة بعد أبيه وتلقب بالحاكم بأمر الله (٣٨٦ — ٤١١ ﻫ) . وكفن جوهر فى سبعين ثوبا مابين مثقل وموشى بالذهب ، ثم صلى عليه العزيز بالله ، ودفن بالقرافة الكبرى ، على ماذهب إليه ابن إياس (١) . وخلع العزيز على ابنه

---

(١) ج ١ ص ٥١

انفرد ابن إياس بذكر الموضع الذى دفن فيه جوهر . فلم يذكر لنا ذلك غيره من المؤرخين كابن الزيات فى كتابه «الكواكب السيارة فى ترتيب الزيارة» والسخاوى فى كتابه «تحفة الأحباب وبغية الطلاب فى الخطط والمزارات والتراجم والبقاع المباركات» ، وهما من أهم المصادر التى يمكن الرجوع اليها فى معرفة الأماكن التى دفن بها مشاهير رجال التاريخ . وكذلك المقريزى التى عنى باستقصاء كل مايتعلق بالفاطميين وأبو المحاسن والسيوطى وغيرهم من مؤرخى مصر الاسلامية .

أما المقبرة التى لاتزال بالجهة الشمالية للأزهر الى اليوم ، والتى يزعم بعض الناس أن جوهراً الصقلى دفن فيها ، فهى مقبرة جوهر القنقبائى من أمراء المماليك ، واليه

الحسين بن جوهر وجعله فى رتبة أبيه ، ولقبه بالقائد بن القائد ، ومكنه من جميع ماخلفه أبوه . ولم يزل محل عطف العزيز ورعايته حتى ولى الحاكم بأمر الله ، فقلده البريد والانشاء سنة ٣٨٦ هـ (سنة ٩٩٠ م) وورد إليه النظر فى أمور الرعية وتدبير أمور الدولة (١) .

هكذا انتهت حياة جوهر ، ذلك الكاتب العظيم والقائد المحنك والسياسى الماهر . فطويت بموته صفحة من صفحات المجد والعظمة . ولقد كان جوهر عاقلا عادلا ، محسنا الى الناس . لهذا لانعجب اذا حزنوا لوفاته ، فرثاه الشعراء على اختلاف مذاهبهم وعقائدهم ، حتى لم يبق بمصر شاعر إلا رثاه وشاد بأدبه الجم وعلمه الغزير وشخصيته الكبيرة وصفاته العالية ومواهبه النادرة .

فرحم الله جوهرا فان مثله فى الرجال قليل .

تنسب مدرسة الجوهرية (الخطط التوفيقية : ج ٤ ص ٢٠ نقلا عن الضوء اللامع للسخاوى)

(١) المقريزى : الخطط ج ٢ ص ١٤ — ١٥

مصادر الرسالة

تنقسم أهم المصادر التى رجعنا اليها فى رسالتنا الى قسمين : عربية وافرنجية .
ومن المصادر الافرنجية : الانجليزى والفرنسى

(ا) المصادر العربيه

١ — ابن الأثير (+ ٦٣٠ هـ و ١٢٣٨ م) : على بن احمد بن أبى الكرم « الكامل فى التاريخ » ١٢ جزء (بولاق ١٢٧٤ هـ)

٢ — ابن إياس (+ ٩٣٠ هـ و ١٥٢٣ م) : ابو البركات محمد بن احمد « بدائع الزهور فى وقائع الدهور » ٣ أجزاء (بولاق سنة ١٣١١ هـ)

٣ — البكرى (+ ٤٨٧ هـ و ١٠٩٧ م) : ابو عبيد الله عبد الله بن عبد العزيز « كتاب المُغْرب فى ذكر بلاد افريقية والمغرب (باريس سنة ١٩١١)

٤ — ابن خلكان (+ ٦٨١ هـ و ١٢٨١ م) : شمس الدين ابو العباس احمد بن ابراهيم بن ابى بكر الشافعى : « وفيات الأعيان » جزءان (القاهرة سنة ١٣١٠ هـ)

٥ — ابن دقماق (+ ٨٠٩ هـ و ١٤٠٦ م) : ابراهيم بن محمد المصرى « الانتصار لواسطة عقد الأمصار » : جزء ٤ و ٥ (بولاق سنة ١٣١٤ هـ)

٦ — ابن سعيد (+ ٦٧٣ هـ و ١٢٧٥ م) : على بن موسى المغربى « كتاب المغرب فى حلى المغرب » (ليدن سنة ١٨٩٨ م)

٧ — السيوطى (+ ٩١١ هـ و ١٥٠٥ م) : عبد الرحمن بن أبى بكر جمال الدين « حسن المحاضرة فى أخبار مصر والقاهرة » جزءان (القاهرة سنة ١٣٢٧ هـ)

٨ — الشهرَستانى (+ ٥٤٨ هـ و ١١٥٣ م) : ابو الفتح محمد بن

عبد الكريم « الملل والنحل » ٥ أجزاء (القاهرة سنة ١٣١٧هـ)
٩ — الطبرى (+ ٣١٠ هـ و ٩٢٢ م) : أبو جعفر محمد بن جرير
« تاريخ الأمم والملوك » ٧ أجزاء (ليدن سنة ١٨٨١ م)
١٠ — الدكتور حسن ابراهيم حسن
« الفاطميون فى مصر » (القاهرة سنة ١٩٣٢ م)
١١ — أبو الفداء (+ ٧٣٢ هـ و ١٣٣١ م) : اسماعيل بن على عماد الدين صاحب حماة « المختصر فى أخبار البشر » ٤ أجزاء (القسطنطينية سنة ١٢٨٦ هـ)
١٢ — ابن القلانسى (+ ٥٥٥ هـ و ١١٦٠ م) : أبو يعلى حمزه
« ذيل تاريخ دمشق » (بيروت سنة ١٩٠٨ م)
١٣ — القلقشندى (+ ٨٢١ هـ و ١٤١٨ م) : أبو العباس احمد . « صبح الأعشى فى صناعة الانشا » ١٤ جزء (القاهرة سنة ١٩١٤)
١٤ — الكندى (+ ٣٥٠ هـ و ٩٦١ م) : أبو عمر محمد بن يوسف
« كتاب الولاة وكتاب القضاة » (طبعت Ruvon Guest سنة ١٩١٢)
١٥ — الماوردى (+ ٤٥٠ هـ و ١٠٥٨ م) : أبو الحسن على ابن محمد بن حبيب المصرى
« الأحكام السلطانية » (القاهرة سنة ١٢٩٨ هـ)
١٦ — أبو المحاسن (+ ٨٧٤ هـ و ١٤٦٩ م) : جمال الدين بن يوسف بن تغرى بن بردى
« النجوم الزاهرة فى ملوك مصر والقاهرة » جزء ١ و ٢ (ليدن سنة ١٨٥٥ م)
١٧ — المسعودى (+ ٣٤٦ هـ و ٩٥٦ م) : أبو الحسن على بن الحسين بن على
« مروج الذهب ومعادن الجوهر » جزءان (القاهرة سنة ١٣٠٣ هـ)
١٨ — مسكوية (+ ٤٢١ هـ و ١٠٣٠ م) : أبو على احمد بن محمد

«كتاب تجارب الأمم» (القاهرة سنة ١٣٣٤ هـ)

١٩ — المقريزى (+ ٨٤٥ هـ و ١٤٤١ م) : تقى الدين احمد بن على

(ا) «المواعظ والاعتبار فى ذكر الخطط والآثار» جزءان (بولاق سنة ١٢٧ هـ)

(ب) «اتعاظ الحنفا بأخبار الخلفا» (بيت المقدس سنة ١٩٠٨)

٢٠ — ابن منجب (+ ٥٤٢ هـ و ١١٤٧ م) : أمين الدين تاج الرياسة أبو القاسم على

«الاشارة الى من نال الوزارة» (القاهرة سنة ١٩٢٤ م)

٢١ — ابن ميسر (+ ٦٧٧ هـ و ١٢٧٨ م) : محمد بن على بن يوسف بن جلب

«تاريخ مصر» (القاهرة سنة ١٩١٩)

٢٢ — ابن هانىء (+ ٣٦٢ هـ — ٩٧٣ م) : أبو القاسم المكنى بأبى الحسن محمد

«ديوان ابن هانىء» (بيروت سنة ١٣٢٦ هـ)

٢٣ — عريب بن سعد (+ ٣٦٦ هـ و ٩٧٦ م) : القرطبى

«صلة تاريخ الطبرى» (ليدن سنة ١٨٩٧ م)

٢٤ — على مبارك باشا

«الخطط التوفيقية» ٢٠ جزءاً بولاق سنة ١٣٠٦ هـ)

٢٥ — ياقوت (+ ٦٢٦ هـ و ١٢٢٩ م) : شهاب الدين أبو عبد الله الحموى الرومى

(ا) «معجم البلدان» ١٢ جزء (القاهرة سنة ١٢٣٢ هـ)

(ب) «ارشاد الأديب الى معرفة الأريب» (القاهرة سنة ١٩٠٧ م)

٢٦ — ناصرى خسرو (+ ٤٨١ هـ و ١٠٨٨ م)

«سفرنامة» (الترجمة الفرنسية . باريس سنة ١٨٨١)

٢٧ — مصطفى بيرم بك

«الجامع الأزهر» (القاهرة سنة ١٣٢١ هـ)

(ب) المصادر الافرنجية

1 — O'Leary De Lacy — :« A Short History of the Fatimid Khalifate » (London, 1932).

2 — Gibbon , Edward : « The History of the Decline and Fall of the Roman Empire »,7vols» edited by j. B. Bury.

3 — Lane — Poole, Stanley . (1) « The Story of Cairo » (London I902). (2) « History of Egypt in the Middle Ages » (4 th ed. 1925) . (3) « The Mohammadan Dynasties » (Paris 1925)

4 — Margoliouth. D. S. « Cairo, Jerusalem and Damascus » (Oxford 1907)·

5 — Nicholson, john. " An Acconnt of the Establishment of the Fatimite Dynasty in Africa ,, (Tübingen, 1840).

6 — Le Strange, Guy. " Baghdad During the Abbasid Caliphate,, (Oxford, 1908.)

7 — Gaston Wiet : " Précis d'Histoire Musulmane de L'Egypte (Cairo 1933).

8 — The Encyclopaedia of Islam.

9 — The Encyclopaedia Britannica.

10 — Historians, History of the World. 27· vols.

11 — M me R. L. Devonshire : Quatre - Vingts Mosquées et Autres Monuments Musulmans du Caire (Cairo,1925).

12 — G. Migeon : Manuel d'Art Musulman. 2, vols. (Paris, 1927).